# الفصل الثانى

# الفدائيون المصريون
# وسقوط الحماية البريطانية

obeikandl.com

obeikandl.com

ما زلنا ـ إلى الآن ـ بعيدين عن معرفة الحقيقة فيما يتصل بالظروف التى أدت إلى ثورة ١٩١٩م ، وما جرى فيها من أحداث ، وما انتهت إليه من نتائج..

ويشغلنى هذا الموضوع ، لأنى أعتقد أننا لن نفهم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، ما لم نفهم كل شىء عن ثورة ١٩١٩م ، ولن نفهم ثورة ١٩١٩م حق الفهم ، إلا إذا عرفنا حقائق ثورة عرابى وحركة مصطفى كامل والحزب الوطنى ، ومسار الحركة القومية المصرية من أوائل القرن التاسع عشر.

لأن التاريخ الحديث لبلدنا سلسلة مترابطة الحلقات ، ولا يمكن فهم هذه الحلقات كلاً على حدة ، لأننا ـ فى الحقيقة ـ أمام حركة قومية مصرية واحدة ، بدأت من أوائل القرن الماضى ، وما زالت متصلة إلى اليوم.

ولقد بذل عبد الرحمن الرافعى جهداً كبيراً فى التأريخ للحركة القومية المصرية ، منذ بدايتها إلى ثورة يوليو ١٩٥٢م ، فقدَّم بذلك عملاً يعتبر من مفاخر المكتبة التاريخية المصرية ، وسيبقى اسم عبد الرحمن الرافعى خالداً بين السلسلة الذهبية من مؤرخى مصر الإسلامية ، التى بدأت بعبدالرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ٧٨٠م ، وما زالت مستمرة إلى اليوم على يد الجيل الجديد المبارك من مؤرخى مصر الحديثة.

ولا أذكر كتاباً لا تملُّه نفسى مثل « الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى بأجزائه الكثيرة ، وما من مرة تناولت جزءاً منه إلا شعرت وكأننى أطالعه أول مرة..

وفى كل مرة تستوقفنى فيه أشياء ، وتطفر أمام عينى مشكلات تحتاج إلى درس ، وأسئلة تحتاج إلى أجوبة..

مثلاً.. ما الذى حمل انجلترا على أن تصدر ـ من تلقاء نفسها ، ومن جانبها فقط ـ تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م الذى ألغت به حمايتها على مصر ؟..

١

# مرحلة طرق الأبواب المغلقة

إن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م الذى ألغى الحماية واعترف بمصر دولة مستقلة ، مع الارتباط الكامل ببريطانيا والخضوع المطلق لإرادتها ، كان ـ ولا يزال ـ موضع خلاف شديد بين مؤرخى مصر ، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين.

فهو ـ دون شك ـ تصريح ، أو إعلان ، يعطينا صورة لما يسمى بالدهاء الإنجليزى.. فقد أعطت به بريطانيا لمصر استقلالاً زائفاً ، واحتفظت لنفسها بكل ما أرادت الاحتفاظ به ، مما زعمت أنه ضرورى لسلامتها وسلامة إمبراطوريتها..

وقد أنكرته غالبية المصريين الأحرار يوم صدوره ، ووقف منه الكثيرون موقف الحيرة والتساؤل والريبة..

ولكنَّ السلطان فؤاداً وحواشيه وأذنابه ، وأتباع الإنجليز وعملاءهم رحَّبوا به ، وإن كان ـ فى الواقع ـ قد صدر على رغم السلطان فؤاد ، لأنه كان مستريحاً جداً لبقاء الإنجليز يحمون عرشه..

ولم يكن هذا السلطان يكره شيئاً قدر كراهيته لاستقلال مصر وحرية المصريين! ومع ذلك فقد سارع وأعلن نفسه ملكاً ، وزفَّ إلى المصريين خبر التصريح فى صورة كسب عظيم حققه هو بنفسه ، ولا أحد سواه !

**• نتائج تصريح ٢٨ فبراير:**

ونتيجة لتصريح ٢٨ فبراير وُضع الدستور ـ وهو أول دستور فى تاريخ العرب الحديث ـ وعادت إلى مصر الحكومة النيابية التى كانت قد توقفت فعلاً منذ بداية الاحتلال البريطانى.

ونتيجة له ـ أيضاً ـ عاد سعد زغلول وصحبه من منفاهم ، ودخل النشاط السياسى فى مصر دوراً جديداً أقل جمالاً من الدور الماضى ، وهو دور التطاحن الحزبى المرير..

ونتيجة لهذا التصريح ـ كذلك ـ تصاعد العمل الفدائى فى مصر بصورة فاقت كل ما

عرفته إلى الآن ، والسبب فى ذلك أن التنظيمات الفدائية كانت تزداد حجماً ونظاماً ومهارة فى استعمال السلاح ، يوماً بعد يوم..

بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير بدأ النشاط السياسى يتراخى ، فى حين سار العمل الفدائى فى طريقه.. فإن الشباب ـ وهم عصب العمل الفدائى ـ لم يقتنعوا بأن هذا التصريح يحقق للبلاد خطوة حقيقية نحو الاستقلال ، فمضوا فى نشاطهم آملين فى الوصول إلى الاستقلال الحقيقى عن هذا الطريق..

ثم إن تصرُّف رجال السياسة بعد التصريح كان مثيراً للغضب ، فتضاعفت اعتداءات الفدائيين على الإنجليز والمتعاونين معهم على السواء ، حتى بلغت أعمالهم ذروتها بمقتل السير لى ستاك فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م.

ولقد كانت عودة سعد إلى البلاد فرصة له لكى يبدأ أسلوباً جديداً من العمل السياسى ، يقف فيه موقف الزعيم والأب المتسامح الذى يغفر وينسى ولا يعرف الحزازات..

ولكنه لم يستطع ، لأن خصومه ـ وعلى رأسهم الملك ـ أصرُّوا على التحدِّى والإحراج والاستفزاز .. وكان سعد من الطراز المقاتل المتحدى ، فقبل الدعوة إلى المعركة ونزل الميدان .. وليته ما نزل ..

فقد أضاع على البلاد وقتاً ثميناً ، ولم يستطع الوصول إلى الغاية التى كان يمكنه ـ قطعاً ـ الوصول إليها..

وكثيرون جداً هم الذين انتقدوا عودته ودخوله الجولة الثانية من الكفاح ، فى حدود قواعد اللعبة التى حددها تصريح ٢٨ فبراير ..

ولسنا هنا فى مجال النقد ، فإننا إذا تكلمنا عن أحمد عرابى أو مصطفى كامل أو سعد زغلول أو عدلى يكن ، لا ينبغى أن نطالبهم بتصرُّف يخرج عن طبيعتهم . فسعد زغلول طالب بالاستقلال التام ، لأنه سعد زغلول المقاتل بطبعه ، وجاهد فى سبيل مصر، لأنه كان يحب مصر بروحه كلها؛ ثم قَبِلَ تصريح ٢٨فبرايرالذى يعطى مصر استقلالاً زائفاً لأنه كان سعد زغلول المغامر المقامر ، الذى لا يتردد فى دخول اللعب واثقاً من نفسه مؤمناً بأن الحظ لن يخونه..

والذين طالبوه بأن يرفض دخول الانتخابات والحكم ، أرادوا منه أن يتصرف بأسلوب محمد فريد..

ولا يمكن أن يكون هو سعد زغلول ويتصرَّف تصرُّف محمد فريد .. فهذا رجل وذاك آخر يختلف عنه تماماً ، ولكل منهما طبعه وطريقته فى الجهاد..

المهم أنه ـ فى النهاية ، وبفضل سجايا سعد وإقدامه ـ أصبح تصريح ٢٨ فبراير خطوة على طريق الاستقلال.. فقد دافع عن الدستور والحريات دفاعاً مجيداً ، وأصرَّ على المحافظة على حقوق الشعب إصراراً شديداً ، وتمكَّن من قصِّ أجنحة السراى وأظهر للشعب حقيقتها من غير قناع..

ومهما قال المتشائمون ، فإن مصر لم تعد أبداً إلى نفسية اليأس والضياع التى كانت تعانيها قبله..

**• لماذا أصدرت انجلترا التصريح؟:**

ولكن.. لماذا أصدرت انجلترا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ؟!

تطور الحوادث قبل صدوره لا يقدِّم إلينا أىَّ تفسير..

ولكى يدرك القارئ غرابة صدور هذا التصريح فى الوقت الذى صدر فيه ، نوجز سير الحوادث منذ الإفراج عن سعد وأصحابه من منفاهم الأول فى مالطة إلى صدور ذلك التصريح :

**٦ أبريل ١٩١٩م:**

• إفراج السلطة المحتلة عن سعد وصحبه المنفيين فى مالطة.

**٧ أبريل ١٩١٩م:**

• إلغاء الحَجْر على المصريين وإعادة الحرية إليهم فى السفر من وإلى مصر كما يريدون ، وقد اعتبر هذان الأمران أول انتصار حقيقى للثورة.

**٨ أبريل ١٩١٩م:**

• بدء مظاهرات الشعب ابتهاجاً بهذا النصر.

• تصدِّى الجنود الإنجليز للمظاهرات واستشهاد نفر من المصريين.

**٩ أبريل ١٩١٩م:**

● تأليف وزارة حسين رشدى الرابعة ، وكان المفروض أن حسين رشدى مؤيد لسعد والثورة.

● استمرار الإنجليز - برغم إفراجهم عن سعد وصحبه - فى التضييق على المصريين ، وتوالى استشهاد الأبطال.

● كان غرض الإنجليز من ذلك ألا يظن المصريون أنهم قد انتصروا عليهم ، وتدل تصرفات الإنجليز المحليين فى مصر على أنهم لم يكونوا راضين عما تصوروه من جنوح حكومتهم إلى اللين فى معاملة المصريين..

**١١ أبريل ١٩١٩م:**

● سفر نفر من أعضاء الوفد من بورسعيد إلى مالطة للّحاق بسعد وصحبه فيها ، ثم سفر الجميع فيما بعد إلى باريس للدعوة للقضية المصرية.

**١٢ أبريل ١٩١٩م:**

● بدء إضراب الموظفين ومطالبتهم رئيس الوزراء حسين رشدى بالاعتراف بالصفة الرسمية للوفد ، وبأن يعلن أن قبوله تأليف الوزارة لا يعنى الاعتراف بالحماية ، ويعمل على إلغاء الأحكام العرفية وسحب الجنود الإنجليز من الشوارع .. ومطالب أخرى.

**٢١ أبريل ١٩١٩م:**

● استقالة وزارة حسين رشدى الرابعة ، نتيجة لإصرار الموظفين على إضرابهم وتوقُّف عجلة العمل فى مكاتب الحكومة.

**٢٢ أبريل ١٩١٩م:**

● الجنرال أللنبى ينذر الموظفين المضربين بالفصل والعقاب.

● إبلاغ المصريين باعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بالحماية البريطانية على مصر.

**٢٥ أبريل ١٩١٩م:**

● الموظفون يقررون إنهاء إضرابهم.

**٧ مايو ١٩١٩م:**

• اعتراف مؤتمر الصلح فى فرساى بالحماية الإنجليزية على مصر.

**١٢ مايو ١٩١٩م:**

• احتجاج الوفد المصرى ـ برياسة سعد زغلول ـ إلى مؤتمر الصلح ، على اعتراف المؤتمر بالحماية.

**١٥ مايو ١٩١٩م :**

• اللورد كيرزون وزير المستعمرات البريطانى يعلن عن عزم الحكومة الإنجليزية على إرسال لجنة إلى مصر ، للتحقيق فى أسباب الثورة ودراسة مطالب المصريين.

**٢١ مايو ١٩١٩م:**

• السلطان فؤاد يكلف محمد سعيد بتأليف وزارة لتسيير أمور مصر ، فى ظل الحماية والتعاون مع سلطات الاحتلال.

**٢٦ يونيو ١٩١٩م:**

•وزارة محمد سعيد تقرر زيادة مرتبات الموظفين ، حتى تفصلهم عن الحركة الوطنية.

• السلطة المحتلة تفرض غرامات مالية على النواحى التى وقعت فيها حوادث تدمير للمنشآت الحكومية على يد الثوار.

**٢٩ يونيو ١٩١٩م:**

• الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين.

• فى الوقت نفسه اشتدت السلطة العسكرية فى معاملة المصريين.

**١ يوليو ١٩١٩م:**

• إلغاء الرقابة على الصحف (شكلياً فقط ).

**٩ يوليو ١٩١٩م:**

• إيقاف أعمال المحاكم العسكرية البريطانية وإحالة القضايا إلى المحاكم العادية (اعتماداً على وجود حكومة ممالئة للاستعمار).

**٢ سبتمبر ١٩١٩م:**

- محاولة اغتيال محمد سعيد رئيس الوزراء.

**١٤ نوفمبر ١٩١٩م:**

- دار الحماية تصدر بلاغاً تعلن فيه عن تكوين لجنة ملنر ، للتحقيق فى أسباب الثورة والنظر فى مطالب المصريين.

- عودة المظاهرات والقلاقل احتجاجاً على هذا البلاغ . استشهاد عدد كبير من المواطنين برصاص الإنجليز . كان الشعب يصرُّ على أن المفاوضة لا تكون إلا مع الوفد الذى اختاره ووكَّله فى الدفاع عن حقوقه.

**١٥ نوفمبر ١٩١٩م:**

- وفاة الزعيم المجاهد محمد فريد فى برلين ، نهاية عصر كامل من عصور جهاد مصر فى سبيل الاستقلال.

- استمرار محاكمة الثوار الذين قُبض عليهم منذ قيام الثورة ، وإصدار أحكام قاسية عليهم لتصفية الثورة.

**١٩ نوفمبر ١٩١٩م:**

- استقالة وزارة محمد سعيد خوفاً من اشتداد الثورة ، ومظاهرات الاحتجاج على لجنة ملنر.

**٢١ نوفمبر ١٩١٩م:**

- تأليف وزارة يوسف وهبة للتعاون مع لجنة التحقيق وتنفيذ مطالب الحماية.

- احتجاج الأقباط على تأليف وزارة يرأسها قبطى لهذا الغرض المنافى لمصالح الوطن.

- استأنفت السلطة العسكرية حملة الاعتقالات.

**٢٢ نوفمبر ١٩١٩م:**

- قتل الضابط البريطانى صمويل كوهين فى شارع شكولانى بشبرا.

**٧ ديسمبر ١٩١٩م:**

- وصول لجنة التحقيق الإنجليزية برياسة اللورد ملنر.
- موجة احتجاج عنيفة ضد اللجنة من كل الهيئات فى مصر.

**١١ ديسمبر ١٩١٩م:**

- الجنود الإنجليز يقتحمون الجامع الأزهر بحجة مطاردة المتظاهرين.

**١٢ ديسمبر ١٩١٩م:**

- احتجاج العلماء على العدوان على الأزهر.

**١٥ ديسمبر ١٩١٩م:**

- الموظفون يعقدون اجتماعاً ويقررون الإضراب ابتداء من اليوم التالى.
- إضراب الطلاب وعودة المظاهرات.
- قيام الفدائى الباسل عريان يوسف سعد بإلقاء قنبلتين على سيارة رئيس الوزراء يوسف وهبة .

**٢٩ ديسمبر ١٩١٩م:**

- اللورد ملنر يذيع بياناً يؤكد فيه أنه إنما أتى للنظر فى إمكان تحقيق مطالب المصريين..

**٣٠ ديسمبر ١٩١٩م:**

- رد اللجنة المركزية للوفد فى القاهرة على بيان ملنر بأن مطلب مصر واضح وصريح ، فهو ليس إلا الاستقلال التام .

**٣ يناير ١٩٢٠م:**

أمراء أسرة محمد على يذيعون بياناً يؤكدون فيه انضمامهم إلى الحركة الوطنية ومطالبتهم بالاستقلال .

**يلاحظ أنه من أواخر نوفمبر ١٩١٩م ظهر فى الحركة الوطنية عنصر جديد ، وهو عنصر الفدائيين الذين رأوا أن الأساليب السياسية لن تؤدى أبداً إلى الاستقلال ، وأنه**

**لابد من مواجهة العنف بالعنف ، الأمر الذى أرغم الإنجليز فى النهاية على تغيير موقفهم وأرهب المصريين المتعاونين معهم .**

**٢٨ يناير ١٩٢٠م:**

- محاولة اغتيال إسماعيل سرى وزير الأشغال بإلقاء قنبلة على سيارته .

**٢٢ فبراير ١٩٢٠م:**

- محاولة اغتيال محمد شفيق وزير الزراعة بالطريقة نفسها .

**٤ مارس ١٩٢٠م:**

- إعادة الرقابة المباشرة على الصحف .. وكان هذا الإجراء رد فعل على أعمال الفدائيين المصريين ، فقد جاء فى البيان الذى أصدرته الحكومة بشأن هذه الإعادة : «نظراً لما تنشره الصحف باستمرار من المقالات التى تخلُّ بسلطة الحكومة ، والتى من شأنها الإغراء بإحداث اضطرابات وإتيان أعمال مناقضة للنظام والأمن العام ، ستكون الرقابة على الصحف سابقة على النشر ابتداء من ٦ مارس ١٩٢٠م ».

**٩ مارس ١٩٢٠م:**

- اجتمعت الجمعية التشريعية (وهى الهيئة التشريعية الرسمية التى كانت لا تزال قائمة ، وإن كانت معطلة) بمنزل وكيلها المنتخب سعد زغلول رئيس الوفد وأعلنت بطلان الحماية ، وأن البلاد المصرية ( التى تشمل مصر والسودان) مستقلة استقلالاً تاماً ، وأرسلت برقية تأييد إلى الوفد المصرى فى باريس ورئيسه سعد زغلول.

- أبلغت الجمعية قراراتها إلى كل الهيئات الرسمية فى الداخل والخارج ، ما عدا السراى فقد أغفلتها عمداً .

**١٦ مارس ١٩٢٠م:**

- الفيلد مارشال إدموند هنرى هاينمان أللنبى يصدر أمراً بمنع كل اجتماع للّجنة التشريعية وغيرها من الهيئات المنتخبة.

**١٨ مارس ١٩٢٠م:**

- غادرت لجنة ملنر مصر دون أى نتيجة ، بعد أن أقامت فيها ثلاثة أشهر ، فقد

قاطعها المصريون جميعاً بناء على توجيهات الوفد والحزب الوطنى ، ولم يتصل بها إلا الوزراء وبعض موظفى الدولة.

**١٥ أبريل ١٩٢٠م:**

● مكافأة للسلطان فؤاد على إخلاصه فى التعاون مع سلطات الاحتلال ؛ أصدرت دار الحماية بياناً قالت فيه إن حكومة جلالة ملك بريطانيا قررت تعديل نظام وراثة العرش المصرى وحصره فى سلالة السلطان أحمد فؤاد ، والاعتراف بفاروق ـ الذى ولد فى ١١ فبراير ١٩٢٠م ـ ولياً للعهد .

**١٦ أبريل ١٩٢٠م:**

● السلطان فؤاد يرسل برقية شكر إلى ملك بريطانيا.

● احتجاج الحزب الوطنى والوفد على ذلك التدخل البريطانى الجديد فى شئون مصر.

**٦ مايو ١٩٢٠م:**

● قتل الضابط «هدن» فى بولاق.

**٨ مايو ١٩٢٠م:**

● محاولة اغتيال حسين درويش وزير الأوقاف بقنبلة أخطأته ، ولكنها جرحت السائق وقتلت شاباً سيئ الحظ..

سادت موجة من الذعر بين المستوزرين ، وبدا بوضوح أن الاشتراك فى الحكم لخدمة الاحتلال والسراى مغامرة غير مأمونة.

**١٩ مايو ١٩٢٠م:**

● استقالت وزارة يوسف وهبة نتيجة لشعور الكراهية العام الذى كان يحيط بها ، ولأن محمد توفيق نسيم سعى ليحل محل يوسف وهبة .

**٢٢ مايو ١٩٢٠م:**

● محمد توفيق نسيم يؤلف وزارته الأولى من أنصار الاحتلال والسراى.

محمد توفيق نسيم ـ ومحمد سعيد قبله ، ووزراؤهما ، وكل الذين دخلوا فى الحكم

لخدمة مصالح الاحتلال والسراى ومناهضة المطالب الوطنية ـ يمثلون طائفة من المستوزرين يمكن أن نسميهم « الموالى الجدد» ، فهم أدوات للقصر وسلطة الاحتلال ، ينفذون ما يصدرانه إليهم من أوامر ولا يبالون بالشعب أو صالح الوطن . وقد ظل هؤلاء « الموالى» موجودين تحت أسماء شتَّى ، حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م فتلاشوا نهائياً.

**٥ - ٧ يونيو ١٩٢٠م:**

● اجتماع الوفد المصرى بلجنة ملنر فى لندن . ذلك أن الوفد ـ برئاسة سعد زغلول ـ أقام فى باريس حتى شهر مايو ١٩٢٠م بعد انتهاء مؤتمر الصلح محاولاً إسماع صوت مصر دون أىٍّ نتيجة ، فلما عاد ملنر إلى لندن دون أن يحقق شيئاً ، اقتنع بأن الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع شعب مصر هى التخاطب مع الوفد ، فأرسل ملنر أحد أعضاء لجنته إلى باريس ، حيث قابل سعداً ودعاه إلى الذهاب إلى لندن للتفاوض مع الإنجليز ، وبعد مناقشات أرسل سعد ثلاثة من أعضاء الوفد إلى لندن لدراسة إمكانيات المفاوضة.

**١٢ يونيو ١٩٢٠م:**

● محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم بإلقاء قنبلة عليه ، لم تصبه ولكنها أصابت السائق بجرح بليغ.

**١٧ يوليو ١٩٢٠م:**

● بعد اتصالات مبدئية تقدَّم ملنر بمشروع إنجليزى للاتفاق بين بريطانيا ومصر ، يتلخص فى قبول مصر ضمان بريطانيا لسلامتها ، ووضع قوة دفاع (حماية) فى أراضيها فى مقابل اعتراف بريطانيا بمصر سلطنة مستقلة تحت الضمان أو تحت الحماية . رفض سعد هذا المشروع ، كما رفضت بريطانيا مشروعاً تقدم به الوفد يتضمن إلغاء الحماية واعتراف بريطانيا باستقلال مصر استقلالاً تامًا..

**١٨ أغسطس ١٩٢٠م:**

● توقفت المفاوضات بعد أن رُفض مشروع ملنر ، ورفض الإنجليز مشروع الوفد .

● بعد ذلك بقليل اتصل عدلى يكن بلجنة ملنر(بموافقة الوفد) لوصل المفاوضات

بعد انقطاعها ، فتقدم ملنر فى ١٨ أغسطس ١٩٢٠م بمشروع جديد لا يختلف عن الأول إلا فى الألفاظ .

يلاحظ أن هذا المشروع قريب الشبه جداً بمعاهدة ١٩٣٦م بين مصر وبريطانيا ، فيما عدا موضوع إلغاء الامتيازات الأجنبية الذى سمحت به معاهدة ١٩٣٦م.

وأضيف لمشروع ملنر الثانى ملحق يفصل السودان عن مصر تماماً ، ويجعله منطقة نفوذ خالص لبريطانيا .

**٢٢ أغسطس ١٩٢٠م:**

● اختلفت آراء رجال الوفد حيال المشروع . وكان سعد لا يميل إلى قبوله ، ولكن رأى زملائه أعضاء الوفد اتفق على الرجوع إلى الأمة واستشارتها ، وأصدر الوفد ـ بلسان سعد ـ بياناً إلى الأمة يعرض المشروع عليها ، ويقرر هذا البيان أن فى المشروع «مزايا لا يستهان بها» ، وفى نفس الوقت أرسل سعد إلى لجنة الوفد المركزية فى مصر خطاباً خاصًا يرفض فيه المشروع ويؤكد أنه لولا خوفه من انقسام الوفد على نفسه لرفض المشروع وعاد إلى مصر ، لأن المشروع ـ فى حقيقته ـ حماية وليس استقلالاً .

**٢٠ سبتمبر ١٩٢٠م:**

● الحزب الوطنى يرفض المشروع.

**أكتوبر ١٩٢٠م:**

● قدَّم عبد العزيز فهمى ـ أحد الثلاثة الذين توجَّهوا إلى دار المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨م ـ تقريراً إلى الوفد يقرر فيه أن المشروع ما هو إلا محاولة بريطانية لإعطاء الاحتلال والحماية صورة شرعية باعتراف المصريين بهما.

**أوائل أكتوبر ١٩٢٠م:**

● استخلص الوفد من استشارته فى مصر أن المشروع لا يحقق استقلال البلاد ، ولكنه يصلح أساساً للمفاوضات ، نظراً للتحفظات الكثيرة التى أبداها نفر من ذوى الرأى والخبرة القانونية فى مصر . فعاد إلى باريس أعضاء الوفد الذين انتُدبوا لعرض المشروع على الأمة . قرر الوفد قبول دعوة ملنر للدخول فى المفاوضات على أساس مشروعه ، وسافر الوفد إلى لندن والتقى سعد بملنر وأبلغه أن للمصريين تحفظات على

المشروع ، فقال له ملنر إن المشروع حزمة واحدة فإما أن يُقبل كله أو يُرفض كله أولاً ، ثم تدور المفاوضات على أساسه ، « لأن المشروع عبارة عن أسس خالية من التفصيل والتفسير ».

**٢٥ أكتوبر ١٩٢٠م:**

● تقابل مع ملنر سعد زغلول رئيس الوفد وعدلى يكن المنتدب من الحكومة للاشتراك فى المفاوضات وكل من عبد العزيز فهمى ومصطفى النحّاس وعلى ماهر ، وأحاطوه علماً بمطالب الأمة وتحفظاتها على المشروع . وكانت أهم المطالب: إلغاء الحماية صراحةً . وقبول عقد معاهدة مع بريطانيا على أساس الاستقلال التام وتعاقد الند مع الند . وعدم الاعتراف بأدنى حق أو امتياز لأية دولة أخرى فى مصر . ولا ضرورة لتعيين مستشارين قانونيين وماليين بريطانيين . والاحتفاظ بحقوق مصر فى السودان .

وقد استمعت لجنة ملنر لهذه التحفظات دون إبداء رأى .

**١ نوفمبر١٩٢٠م:**

● طلب الوفد رسمياً الدخول فى مفاوضات مع بريطانيا ، على الأساس الذى ذكرناه آنفاً..

**٩ نوفمبر١٩٢٠م:**

● قُطعت المفاوضات ..

ذلك أن مناقشات حادة دارت فى مجلسى العموم واللوردات فى انجلترا حول وضع مصر بالنسبة لبريطانيا وما قامت به لجنة ملنر ، وهوجم فيهما ملنر مهاجمة عنيفة . وتبين تماماً أن قادة الإنجليز ـ من أمثال لورد كيرزون ولورد سيلبورن ولورد سالسبورى ومستر تشرشل ـ لا يريدون فى الحقيقة إلا الاحتفاظ بمصر مستعمرة بريطانية صِرْفة ، دون أن يتركوا للمصريين أدنى حق فى تقرير مصير بلادهم..

وفى اجتماع قصير بين أعضاء الوفد ولجنة ملنر ، أعلن ملنر فى بيان موجز أن انجلترا لا ترى الاستمرار فى التفاوض مع الوفد .. وأنها إذا رأت عقد معاهدة مع مصر ، فستدخل فى مفاوضات مع الحكومة المصرية ( لا مع من يقولون إنهم ممثلو الشعب) .

**١١ نوفمبر ١٩٢٠م:**

• غادر الوفد لندن إلى باريس ، فى طريقه إلى مصر.

• أرسل سعد بياناً إلى الشعب المصرى ، يطلب منه الاتحاد والصمود والإيمان والتضحية حتى تنال مصر حقوقها.

**٩ ديسمبر ١٩٢٠م:**

• نشرت الحكومة البريطانية التقرير الذى قدَّمه لورد ملنر إلى لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية عن مهمته فى مصر ، ونُصْحه الحكومة البريطانية بسرعة الدخول فى مفاوضات مع الحكومة المصرية على أساس مشروعه .

**يناير ١٩٢١م:**

• استقال لورد ملنر من منصبه كوزير للمستعمرات ، وخلفه وينستون تشرشل.

**فبراير ١٩٢١م:**

• أعلن تشرشل وزير المستعمرات الجديد أن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية ، وأن كل تطور فى وضعها ينبغى أن يتم ضمن هذا الإطار .

**٢٦ فبراير ١٩٢١م:**

• دار الحماية تبلغ السلطان فؤاداً أن الحماية وضع غير مُرْضٍ للعلاقات بين مصر وبريطانيا ، ولهذا فإن بريطانيا ترغب فى التفاوض مع مصر للنظر فيما يمكن عمله لتعديل هذا الوضع ، على أن تكون المفاوضة مع وفد رسمى يعيِّنه السلطان .

***

هنا تنتهى مرحلة طويلة من مراحل كفاح مصر لنيل استقلالها من بريطانيا..

وتتلخص نتائج هذه المرحلة فى أن بريطانيا تنبهت إلى أنها لا تستطيع الاحتفاظ بمصر مستعمرة صِرْفة أو منطقة حماية.

وأنه لابد من تغيير ذلك الوضع بوضع آخر ـ داخل الإطار الاستعمارى ـ يقوم على أربع نقط:

(أ) ربط مصر بعجلة السياسة البريطانية ، وتمكين بريطانيا من استغلال مصر.. لا يهم

الشكل الذى تأخذه مصر فى الوضع الجديد ( سلطنة ، مملكة ... إلخ ) ، المهم أن تظل مصر ملكاً خالصاً لبريطانيا .

(ب) لا بأس من إعطاء المصريين بعض المكاسب الشكلية ، والسماح لهم بإدارة بعض شئونهم ، ولا مانع من أن يكون لحكومتهم نوع من الشكل الدستورى .

(ج) تسخير المصريين فى القضاء على ما كانت بعض الدول الأوربية تدَّعيه من الحقوق فى مصر .

(د) القضاء على ما يتمسك به المصريون من وحدة مصر والسودان ، وما تمسَّك به الوفد من حقوق معيَّنة لمصر فى السودان.

**• نتائج جدُّ هزيلة:**

وتبدو لنا هذه النتائج الآن جد هزيلة ، بالنسبة إلى ما قام به شعب مصر من كفاح للتخلص من ذل الاحتلال..

فقد ذهب ثلاثة من زعماء مصر إلى ممثل الحماية البريطانية ـ قبل بدء مفاوضات الصلح ـ ليستجوبوه عن مستقبل بلادهم..

وأعلن سعد بطلان الحماية فى خطاب علنى ، فكان بذلك أول من تحدَّى سلطان بريطانيا تحدِّياً صريحاً باسلاً بعد الحرب العالمية الأولى..

وهذا التحدى هز كيان مصر ، فقامت الثورة الشاملة .. وسقط فى الميدان شهداء كثيرون..وغصَّت السجون بالمجاهدين .. ونُفى سعد ونفر من الزعماء إلى خارج مصر.. ومضت الثورة تزداد عنفاً وبسالة ، حتى اضطرت بريطانيا إلى الإفراج عن سعد وصحبه..وذهب سعد وأصحابه إلى باريس..وبدأت المرحلة الحزينة: مرحلة طرق الأبواب المغلقة.. هنا بدت لهم أوربا على حقيقتها: فمؤتمرات الصلح لم تكن ـ فى الحقيقة ـ إلا وليمة فخمة للمنتصرين .. العالم ـ فى نظرهم ـ كان كعكة كبيرة يقتسمونها فيما بينهم..

أما المطالبون بحقوق بلادهم ـ خارج الأبواب ـ فلا شىء لهم ، ولا الفتات. . لأن الفتات يُعطى لأتباع أوربا : الصِّرْب ، الكروات ، اليونان ، ليتوانيا ، لاتفيا ، أستونيا ، بولندا ... إلخ.

وكان هناك ناس آخرون جعلوا من أنفسهم أتباعاً للغرب ، حاسبين أنه يكافئهم على ذلك بالاستقلال !..

أولئك هم الذين خدعهم الاستعماريون ، وجعلوهم ينقلبون على تركيا فى عنفوان الحرب ، ويمهِّدون بذلك لهزيمتها..

هؤلاء خابت آمالهم أكثر مما خابت آمال الذين لم يحصلوا على الفتات ، فإن الذين لم يحصلوا على الفتات وقفوا مكانهم ـ على الأقل ـ فى عزة ولم يعاونوا الأعداء على بلادهم .

هؤلاء المخدوعون وجدوا بلادهم وقد أصبحت ـ آخر الأمر ـ جزءاً من كعكة المنتصرين ، وجرى فيها سكِّين التقسيم !..

بأنفسهم حكموا على بلادهم بأن تكون مستعمرات !..

وفى اندفاعهم نحو الحصول على شىء ، سمحوا للصهيونية بأن تضع قدمها فى فلسطين ، وفقدوا كل شىء!.

وانتهت مؤتمرات الصلح وأعياده فى فرساى ، ولم تفز مصر بأى شىء ..

وانتهت مأساة لجنة ملنر ، والبلاد فى مكانها لم تتقدم خطوة..

كان ذلك إخفاقاً ذريعاً للعمل السياسى..

هكذا كان إحساس الشباب بصفة خاصة .. هنا كان لابد من العمل العنيف الذى بدأت به الثورة ، فهو ـ وحده ـ الكفيل بإرغام المحتل على إعادة النظر فى حساباته..

***

ولكنْ ، إحقاقاً للحق نقول إن الوفد ـ وكان إلى ذلك الحين يمثل صفوة رجال مصر بلا انقسامات ولا انشقاقات ـ قدَّم لمصر خدمة جليلة..

لقد أثبت لبريطانيا أن فى مصر رجالاً من مستوى رفيع ، وأن وراء أولئك الرجال شعباً حياً قوياً مستعداً لمواصلة النضال..

وفى إحساس سعد ـ إذ ذاك ، وبعد التجربة الطويلة التى خاضها من ١٣ نوفمبر

١٩١٨ إلى أواخر فبراير١٩٢١م ـ كان الطريق قد أصبح أقل وضوحاً مما كان عند البداية..

فى البداية ـ وقبل السفر إلى أوربا للاتصال بمؤتمر الصلح ـ كان الأمل عظيماً.. لأن الثورة أيقظت شعب مصر ، وكان الناس يحسبون أنه ما دام الشعب قد استيقظ فإن الاستقلال أصبح على الأبواب..

وفى باريس وجدوا أنفسهم فى طريق ضيق أبوابه ـ على الجانبين ـ مغلقة..

وفى باريس ـ أيضاً ـ أحس سعد أن الرجال من حوله ليسوا جميعاً من حديد ، وأن بعض القلوب تلين للإغراء ، وأن الكثير من الأقدام قد تعبت بعد سير قليل..

ولهذا فقد وضع همه فى المحافظة على وحدة الأمة ، وإذا كان هناك كثيرون من بين أعضاء الوفد قد رأوا فى مشروع ملنر كسباً ، فليحافظ عليهم إلى جانبه حتى لا ينفصلوا عن القافلة ويجرفهم التيار..

وإذا كانت انجلترا قد أرادت بتبليغها أن تلغى وجود الوفد ممثل الأمة ، وتضع القضية فى يد عميلها السلطان فؤاد ، فلا بد من تفويت الفرصة عليها وإبقاء السلطان خارج القضية..

وكان «عدلى يكن» رجلاً كاملاً وشخصية جليلة ومصريًا شريفاً وقاضياً نزيهًا ، ولكنه كان من الطبقة التى ولدت وعاشت فى الأرجوان : يرون أنفسهم أهم من القضية التى تصدَّوا لها .. وكان قد دخل القضية من منصَّة القضاة ، ولم يسمح لنفسه أبداً بأن ينزل إلى القاعة ويقف مع المحامين والمتقاضين..

لهذا اجتهد سعد فى كسب عدلى إلى جانبه..

وتوالت برقيات سعد إلى عدلى ، كلها تأييد له وتقوية لمركزه ، حتى يكون هو المفاوض الرسمى الذى يفاوض بريطانيا ، لا توفيق نسيم خادم السراى..

وفى المدة (من ١٢ فبراير إلى١٧ مارس١٩٢١م) ، أرسل سعد إلى عدلى أربع برقيات على الأقل..

وفى ١٥ مارس ١٩٢١م سقطت وزارة نسيم.

وفى ١٧ مارس ١٩٢١م أَلَّف عدلى يكن وزارته التى سُمِّيت بوزارة الثقة..

وبهذا ظل الأمل فى القلوب .. ظلت الشعلة متوهجة ، وعاد سعد إلى مصر فى ٤ أبريل ١٩٢١م ، واستُقبل فى الإسكندرية والقاهرة استقبال الفاتحين..

وفى صميم نفسه ، كان سعد لا يعرف ما هى خطوته التالية..

ولكن شباب مصر كان يعرف..

وشباب الأوطان ـ فى الغالب ـ لا يضلُّون الطريق..

***

obeikandl.com

٢

# شباب مصر
# كان يعرف ما يريد

كانت الحكومة المصرية ـ إذ ذاك ـ هى السلطان فؤاد .. وكان السلطان فؤاد ـ كما قال سعد زغلول فى خطبته فى شبرا يوم ٢٥ أبريل ١٩٢١م ـ : «يمثل سلطة الحماية المضروبة عليكم رغم أنوفكم» ، وهو ـ لهذا ـ لا يؤتمن على مصالح البلاد..

ونعتقد أن سعداً ـ وهو فى باريس ـ كان لا يرى مانعاً من أن يتولى عدلى يكن رياسة وفد المفاوضات ، ويشترك معه الوفد..

ولكنه عندما عاد إلى مصر واستُقبل استقبالاً قويًا شاملاً لم تعرف مصر مثيلاً له فى تاريخها الطويل ، شعر بأنه ـ فى الحقيقة ـ يمثل الأمة ، وأن هذه الأمة لا تثق إلا فيه..

ولهذا تمسَّك بأن يكون رئيس وفد المفاوضات ، وكان على حق فى هذا التمسك..

ومن ناحية أخرى تمسَّك عدلى يكن بحقه فى رياسة ذلك الوفد ، وكان على حق أيضاً فى هذا التمسك ، فهو رئيس الحكومة وهو مؤيَّد من سعد نفسه..

وإلى جانب ذلك كان عدلى يكن رجلاً شريفاً ووطنيًا مخلصاً ومصرياً عزيز النفس كامل الشعور بشخصيته وكرامته..

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يتساهل فى حقوق بلاده ، لأن الذين يتساهلون فى الحقوق هم أصحاب المطامع الشخصية ، وقطعاً لم يكن «عدلى» منهم ..

وقد أخطأ سعد عندما حمل على عدلى حملة عنيفة ، ووصف تفاوضه مع الإنجليز باسم مصر بأنه « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»! ..

ولكن سعداً كان فى نشوة تأييد جماهيرى غامر ، وليته قرأ قول كريولانوس وهتاف الجماهير له يهدر ويرجُ روما رجاً : «هذا الهدير خمر قاتلة .. لا يشرب منها رجل عاقل»!.

وما رفضه سعد رفضاً قاطعاً فى أبريل ١٩٢١م ، قَبِلَهُ بعد ذلك بسنوات عندما تلاشت نشوة الخمر القاتلة واتضحت الرؤية أمام عينيه من جديد..

خلاصة القول أننا دخلنا فى المعارك الجانبية والحرب الأهلية والانشقاقات التى عطَّلت القضية الوطنية سنوات طويلة..

***

قلنا إن شباب مصر كان يعرف ما يريد ، وأن شباب الأوطان ـ فى الغالب ـ لا يضلُّون الطريق..

وللشباب طريقة مباشرة فى العمل لا يعرفها غير الشباب ..

ومن أجمل ما تبيَّناه ـ عندما أعدنا النظر فى ملف ثورة ١٩١٩م ـ أن رؤية الشباب الساذجة المباشرة كانت أوضح من رؤية الشيوخ ، وهذه الرؤية أنارت الطريق وأزالت كثيراً من العقبات التى وضعها الشيوخ فى الطريق..

ولكى نفهم هذا نعود إلى تتبُّع الحوادث..

## • سنة أخرى فى طريق اليأس:

**٤ أبريل ١٩٢١م:**

• عاد سعد وصحبه إلى مصر واستُقبلوا استقبال الأبطال.

• التقى عدلى بسعد وظهرت مشكلة « من يرأس وفد المفاوضات ؟ ».

• سعد يطلب من الحكومة إلغاء الأحكام العرفية والحكومة تعجز عن ذلك ، لأن السلطة العسكرية البريطانية هى التى أعلنتها ولا سلطان للحكومة المصرية عليها .

**٢٥ أبريل ١٩٢١م:**

• جريدة الأهرام تنشر حديثاً لعدلى يكن يتمسك فيه بحقه فى رياسة وفد المفاوضات.

• فى اليوم نفسه ألقى سعد خطاباً خطيرًا أليماً فى حفل أُقيم لتكريمه فى شبرا ، هاجم فيه عدلى يكن هجوماً مسرفاً فى العنف: «إن هذا (أى: رياسة عدلى لوفد المفاوضات) يجعل المفاوضة بين الأصل وفرعه ، أى : بين الحكومة الإنجليزية وبين الحكومة الإنجليزية أيضاً» .

**٢٨ أبريل ١٩٢١م:**

• بدأ الانقسام فى الوفد .. نفر من أعضاء الوفد يعلن أن سعد زغلول مستبد برأيه ، وأنه جعل القضية المصرية قضية شخصية ، ويعلنون تأييدهم لموقف حكومة عدلى .

**٢٩ أبريل ١٩٢١م:**

• سعد ينشر بيانًا على الأمة يعلن فيه فصل هذا النفر من الوفد . بداية مظاهرات عدائية ضد حكومة عدلى يكن ومؤيديها . البوليس يتصدى لها . مقتل ٤ وجرح ٤٠ .

**١٥ مايو ١٩٢١م:**

• الحكومة تلغى الرقابة على الصحف.

**١٩ مايو ١٩٢١م:**

• تأليف الوفد الرسمى للمفاوضات ، برياسة عدلى يكن.

• زيادة هياج الجماهير ضد خصوم سعد والاعتداء على بيوتهم .

**٢٢ مايو ١٩٢١م:**

• مظاهرات عنيفة فى الإسكندرية والاعتداء على بعض الأجانب.

• سعد يذيع بياناً يطلب فيه إلى الشعب الهدوء.

• ونستون تشرشل وزير المستعمرات يعلن أن الاعتداء على الأجانب يجعل بريطانيا ملزمة بالبقاء فى مصر لحماية أرواحهم وأموالهم .

**• هل كان الاعتداء على الأجانب من تدبير الإنجليز ؟ :**

**١٢ يوليو ١٩٢١م:**

• بداية مفاوضات (عدلى ـ كيرزون) فى لندن..

( طال أمدها دون جدوى)..

**١٠ نوفمبر ١٩٢١م:**

• اللورد كيرزون يسلِّم عدلى يكن مشروع معاهدة تقترحها بريطانيا على مصر ، خلاصته أن بريطانيا تعترف باستقلال مصر ، وبأنها دولة ذات سيادة وحكومة دستورية ،

وفى الوقت نفسه تحتفظ انجلترا بمركزها فى مصر كما هو ، وتظل جيوشها على أرض مصر ، وتتولى السياسة الخارجية للبلاد ، وهى التى تتولى أيضاً التفاوض مع الدول لإلغاء الامتيازات الأجنبية .

**٢ ديسمبر ١٩٢١م:**

• اللورد أللنبى يبلغ السلطان فؤاداً فى القاهرة ( وبينما كان رئيس الحكومة عدلى يكن يفاوض فى لندن ) تبليغاً يؤكد إصرار بريطانيا على موقفها ، ويقدم للمصريين معاونات وهمية لا قيمة لها .

**٥ ديسمبر ١٩٢١م:**

• عودة عدلى يكن إلى مصر بعد فشل مفاوضاته.

**٧ ديسمبر ١٩٢١م:**

• سعد يذيع بياناً يطلب فيه إلى الأمة مواصلة الجهاد ، ويحمل على هذا التبليغ البريطانى حملة قوية .

**٨ ديسمبر ١٩٢١م:**

• عدلى يقدِّم استقالة وزارته .. السراى ترجئ البتَّ فيها .

**٢٠ ديسمبر ١٩٢١م:**

• قتل جندى بريطانى اسمه بروكول برصاصة فى ظهره فى شارع السبتية.

**٢٢ ديسمبر ١٩٢١م:**

• السلطة العسكرية البريطانية تطلب إلى سعد الكفَّ عن مهاجمة الاحتلال ، وتأمره بالتوقف عن إلقاء الخطب ونشر المقالات والبيانات .

• سعد يرفض الإنذار ، ويؤكد أنه موكَّل من الأمة للسعى فى الحصول على استقلالها ، وأنه ماضٍ فى طريقه ، «وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفراداً وجماعات»..

**٢٣ ديسمبر ١٩٢١م:**

• اعتقال سعد ونفر من أصحابه.

• إجماع البلاد على الاحتجاج على اعتقال سعد وصحبه.

**٢٤ ديسمبر ١٩٢١م:**

● عدلى يتعجل قبول استقالته. تُقبل الاستقالة .

**٢٥ ديسمبر ١٩٢١م:**

● أمين الرافعى يكتب فى جريدة الأخبار ـ لسان حال الحزب الوطنى إذ ذاك ـ مقالاً يدعو فيه إلى وحدة الصف المصرى .

**٢٨ ديسمبر ١٩٢١م:**

● عودة الذين فُصلوا من الوفد إلى صفوفه.

● تولت شئون الوفد فى غياب سعد هيئة من : حمد الباسل ، وويصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خياط ، ومرقس حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى ، وواصف بطرس غالى .

● أعلنت هيئة الوفد بياناً يتضمن برنامجاً للعصيان المدنى ، يدعو الشعب إلى قطع العلاقات الاجتماعية مع الإنجليز وعدم التعاون معهم ، وتجاهل وجود الموظفين الإنجليز (بما فى ذلك المحاكم التى يرأسها قضاة إنجليز) ومقاطعة البنوك والشركات والبضائع الإنجليزية.

● الأعضاء الذين كانوا قد انشقوا عن الوفد ثم عادوا إليه ( محمد محمود ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ، وحافظ عفيفى ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة ، وجورج خياط) يرفضون توقيع بيان المقاطعة .. وبذلك ينفصلون نهائياً عن التيار القومى العام .

**٢٩ ديسمبر ١٩٢١م:**

● نفى (سعد زغلول ، وفتح الله بركات ، وعاطف بركات ، ومصطفى النحَّاس ، وسينوت حنا ، ومكرم عبيد) إلى عدن ثم إلى سيشل ..

**٣٠ ديسمبر ١٩٢١م:**

● قتل إرنست هاتون بشارع جزيرة بدران.

**من أوائل يناير ١٩٢٢م:**

● ازدياد نشاط الفدائيين المصريين وتوالى الاغتيالات السياسية ..

**٥ يناير ١٩٢٢م:**

- مقتل محمد بدر الدين مراقب الجنايات بإدارة الأمن العام.
- سلطات الاحتلال تقبض على هيئة الوفد التى أذاعت البيان وتعتقلهم فى ثكنات قصر النيل..
- تشكيل هيئة وفدية جديدة.

**٢٥ يناير ١٩٢٢م:**

- قتل الصول الهندى سيتل بشارع الفجَّالة.

**٢٧ يناير ١٩٢٢م:**

- الإفراج عن هيئة الوفد التى اعتقلت فى ٢٥ يناير..

**١ فبراير ١٩٢٢م:**

- اغتيال المستر براون المفتش بوزارة المعارف ( التربية والتعليم الآن) والمستر جوردان صاحب مصنع بالشرابية ، ومحاولة اغتيال المستر بيتش وكيل القسم الميكانيكى بالسكك الحديدية .. دون معرفة الفاعلين .. واستمرت الاغتيالات.
- منذ قبول استقالة عدلى يكن لم تتألف وزارة .. ظلت مصر شهرين دون وزارة ..
- ثم عُرضت الوزارة على عبد الخالق ثروت ، فوضع شروطاً كثيرة لقبول تأليفها أهمها :

ـ أنه لا يقبل مشروع كيرزون والتبليغ البريطانى بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢١م .

ـ تعلن الحكومة البريطانية إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر .

ـ إعادة وزارة الخارجية وإنشاء تمثيل سياسى وقنصلى مصرى فى الخارج..

ـ وضع دستور ، وإنشاء نظام نيابى يتولى السلطة التشريعية .

ـ إلغاء وظائف المستشارين الإنجليز للوزارات ، فيما عدا مستشارى المالية والحقَّانية (العدل الآن).

ـ لا يحضر المستشار المالى جلسات مجلس الوزراء .

**٢ فبراير ١٩٢٢م:**

● الوفد يهاجم شروط عبد الخالق ثروت ، لأنها لم تتضمن النص على الجلاء..

**٣ فبراير ١٩٢٢م:**

● سافر اللورد أللنبى إلى لندن ، ليقنع الحكومة الإنجليزية بقبول شروط عبد الخالق ثروت..

**٢٨ فبراير ١٩٢٢م:**

● صدر تصريح ٢٨ فبراير معلناً نهاية الحماية البريطانية على مصر ، وأنها دولة مستقلة ذات سيادة ، مع تمسُّك بريطانيا بالتحفظات الأربعة المعروفة ( تأمين مواصلات الإمبراطورية عبر مصر وذلك بإبقاء قوة عسكرية فى مصر ـ حماية المصالح الأجنبية ـ وكذلك الأقليات ـ السودان) ، وحتى توقِّع مصر معاهدة مع بريطانيا يتقرر فيها كيف تحصل بريطانيا على ما يطمئنها من الضمانات فى كل نقطة من هذه النقاط الأربع ، تبقى الحالة فيها قائمة كما هى..

**● تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م وسقوط الاحتلال:**

وقد اعتُبر هذا التصريح نصراً للحركة القومية ، وحتى المتشددون من رجال الحزب الوطنى أقروا بذلك..

فقد اعترفت انجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة..

وكسبت مصر حريَّات واسعة فى تسيير أمورها الداخلية..

وتقرَّر وضع دستور وإنشاء حكومة دستورية ، تعتمد على تأييد برلمان منتخب انتخاباً حراً.

ولا شك فى أنه لو أن رجال مصر ـ إذ ذاك ـ اتحدَّت صفوفهم وساروا فى قضية بلادهم عن إخلاص وصدق عزيمة وتصميم على استكمال الاستقلال ، لسار تاريخ مصر من ذلك الحين فى طريق آخر..

ولا شك كذلك فى أن السراى بذلت كل وسعها لتضييع الثمرة التى وصل إليها المجاهدون .. فقد وقف السلطان فؤاد فى خبث وأنانية وعناد موقف عداء شديد

للدستور ، وقام بكل ما استطاع لكى يجعل من الدستور قانوناً ملكياً يخدم مصالح السلطان فحسب..

وخلف السلطان فؤاد استترت السلطة البريطانية فوضعت العراقيل فى سبيل تقدُّم البلاد .. وخلف السلطان والإنجليز وقف العملاء من المستوزرين وطلاب المكاسب يعاونون السراى والإنجليز على بلادهم..

من هنا نشأت الأحزاب المناوئة للحريَّات ، ومحاولات إلغاء الدستور ومسخه ، وانحرف مسار الحركة الوطنية..

وتضعضع الوفد ـ ممثل الأغلبية ـ وتوالت فيه حركات الانفصال والانشقاق.. ووجد نفسه فى أوائل ١٩٣٦م يجاهد لمجرد البقاء ، مع أن الأمة كلها لا تزال معه..

وإذا تتبَّعنا سير العمل السياسى قبل إعلان ذلك التصريح مباشرة ، لم نجد فيه ما يرغم انجلترا على التسليم باستقلال مصر مهما كانت صورة ذلك الاستقلال.. بل إن سير العمل السياسى هذا كان لابد أن يؤدى إلى تشدُّد بريطانيا وعدم الاكتراث أبدًا بصياح القاهرة .. فالجبهة الوطنية تصدعت ، والوطنيون أصبحوا شيعاً وأحزاباً..

وسعد زغلول وصحبه منفيُّون فى سيشل ، وكان من الممكن أن يظلوا فى المنفى إلى ما شاء الإنجليز ، والمظاهرات والاحتجاجات مصيرها إلى الهدوء..

وإغراء الوزارات والمناصب يجتذب كل يوم نفراً ممن تصدَّوا للكفاح ، ويجعل منهم أدوات طيِّعة للسراى والاحتلال..

إذن: ما الذى جعل انجلترا تصدر هذا التصريح فجأة ، ومن جانب واحد ، أى : دون أن تنتظر الوصول إلى اتفاق مع المصريين ؟ ..

لماذا قبلت شروط عبد الخالق ثروت مع أن الأمة لم تكن تؤيده ، بل كان السلطان فؤاد نفسه ضده ؟..

**ليس هناك إلا جواب واحد: خوف الإنجليز من نشاط الفدائيين المصريين.**

لأن حركة الفدائيين المصريين ـ التى عُرفت بحركة الاغتيالات ـ أقلقت بال الإنجليز وصنائعهم فى مصر ، وألقت فى نفوسهم رعباً شديداً.

فقد كان الموظفون البريطانيون فى مصر كثيرين ، وكانوا منتشرين فى نواحى البلاد كلها عاملين فى كل مرافقها الحكومية وغير الحكومية..

فكان هناك مئات من المدرسين الإنجليز والموظفين فى الوزارات المختلفة ، ما بين صغار وكبار فى القاهرة وغيرها ، وجميع هؤلاء كانوا يعيشون بين الناس ، ويروحون ويجيئون فى الشوارع ، معرَّضين للفتك بهم واغتيالهم..

وكانت مصر غاصَّة بتجَّار الإنجليز ووكلاء الشركات وأصحاب المصانع وبيوت المال..

وكان هناك عدد كبير جدًا من الأجانب ممن يحملون جوازات سفر إنجليزية ، ما بين يهود ومالطيين وأرمن ويونان وهنود ، وكل هؤلاء كانوا معرَّضين للخطر..

وكان معظم المحلاَّت التجارية والمصارف ووكالات الشركات فى أيد غير مصرية..

هذه كلها كانت عرضة للنهب والإحراق والاعتداء فى أى لحظة. وفى العادة كان الفدائيون ينبثُّون فى صفوف المتظاهرين ويهاجمون المتاجر والمحلاَّت الأجنبية ليحرجوا بذلك مركز انجلترا..

وكانت أعمال الفدائيين فى زيادة مستمرة .. وكان الفدائيون يزدادون جرأة وإتقانًا لعملهم يومًا بعد يوم..

ولعل هناك من يقول : ولكن الاغتيالات كانت قليلة ، فهى تقع بمعدل اغتيال واحد فى الشهر ، ثم إن معظمها لا يصيب الهدف فى دقة..

وهذا صحيح إلى حد ما..

ولكن العبرة هنا ليست بالعدد أو الإصابة وعدمها ، بل العبرة بوجود الخطر واحتمال وقوع محاولة الاغتيال فى أى زمان ومكان..

فكل إنجليزى كان يخرج من بيته وهو يشعر بأنه يغامر بنفسه..

وكل مستوزر أو عميل ، كان متأكداً من أن فدائياً ما ينتظره عند منعطف الطريق ، وفى يده قنبلة أو مسدَّس..

وكل تاجر إنجليزى ، أو ممن يحميهم الإنجليز ، كان لا يأمن على متجره وأمواله ساعة من نهار..

وفى ذلك العصر كان كل رجال السياسة فى أوربا فى رعب دائم ممن كانوا يسمُّونهم الإرهابيين .. وهذه التسمية ـ فى ذاتها ـ تعبِّر عن ذلك الرعب . فإن الفدائيين قد يضربون ضربة كل شهر ، وقد تخيب هذه الضربة ولكنها تنشر جواً مستمراً من الرعب يخيف الجهة المقصودة ، ويضع قوات الأمن فى حالة تأهُّب دائمة ، ويحرم الخصوم وأهل الحكم من ذلك الهدوء الذى ينشدونه دائماً.

وانجلترا كانت فى حاجة ماسَّة إلى الهدوء والأمن فى مصر.. لأن مركزها فى مصر كان غير قانونى . كان يستند إلى الفكرة التى ظلَّ اللورد كرومر يعمل على تثبيتها فى أذهان الأوربيين طوال حكمه ، وهى أن انجلترا تحرس مصالح أوربا والأوربيين فى مصر وتؤمِّنها ، وتمكِّن أوربا من استغلال هذا البلد كما تريد..

فإذا شعر الأوربيون فى مصر بالخوف والقلق وعدم الاطمئنان على النفس ، وإذا كان الموت يتربص بهم فى كل زاوية ، فالمسئول عن ذلك فى نظرهم هى انجلترا ، فهى التى تعهدت لهم بذلك . لهذا كانت حركة الفدائيين سلاحاً خطراً جداً على مركز بريطانيا فى مصر.

ولهذا أيضاً سارعت بريطانيا بإعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ، لتنقل المسئولية عن الأمن الداخلى فى مصر عن كتفيها وتضعها على كاهل المصريين..

وبالفعل ـ بعد تأليف وزارة عبد الخالق ثروت على أساس التصريح ـ انتقلت المسئولية عن أعمال الفدائيين إلى السلطات المصرية..

ولست أعنى بذلك أن نشاط الفدائيين المصريين وحده هو الذى خطا بالحركة الوطنية هذه الخطوة ، ولكنه أسرع بتحقيقها ودفع بريطانيا إلى إعلان استقلال مصر دون انتظار المصريين..

ولو اقتصر الأمر على جهود أهل السياسة والأحزاب ورجال الوفد وأعداء الوفد ومناورات السراى ودسائس الإنجليز ، لتأخرت هذه الخطوة سنوات..

وقد اعترفت بريطانيا بذلك فى خطابها إلى السلطان فؤاد الذى أرفقته بنصِّ التصريح فقد قالت فى الفقرة السابعة منه : « فإذا كانت هذه نوايا انجلترا فلا يمكن لأحد أن ينكر أن انجلترا يعزُّ عليها أن ترى المصريين يؤخِّرون ـ بعملهم ـ حلول الأجل الذى يبلغون فيه

مطمحًا ترغب فيه انجلترا كما تتوق إليه مصر ، أو أن تكره أن ترى نفسها مضطرة إلى التدخل لردِّ الأمن إلى نصابه كلما أدركه اختلال يثير مخاوف الأجانب ويجعل مصالح الدول فى خطر . وإنه لمما يؤسف له أن يرى المصريون فى التدابير الاستثنائية التى اتُّخذت أخيراً أىَّ مساس بمطمحهم الأسمى ، أو أية دلالة على تغيير القاعدة السياسية التى سبق بيانها ، فإن الحكومة البريطانية لم تُرد إلا أن تضع حدًا لتهييج ضارٍّ قد يكون لتوجيهه إلى أهواء العامة نتائج تذهب بثمرة الجهود القومية المصرية . ولذلك كان الذى رُوعى بوجه خاص فيما اتُّخذ من التدابير ، مصلحة القضية المصرية التى تستفيد من أن البحث فيها يجرى فى جو قائم على الهدوء والمناقشة بإخلاص» (١) .

ولا يتعارض رأينا هذا مع ما هو ثابت من أن عدلى يكن ـ فى مفاوضاته مع كيرزون ـ قال له فى سياق حديثه : «.. فلست أرى ما يمنعكم من تنفيذ الأحكام التى تضمَّن مشروعكم الاعتراف بها للمصريين ، وذلك إلى أن يتم الاتفاق على ما اختلفنا فيه من المسائل».

وكان عدلى يشير بهذا إلى ما ورد فى المادة الأولى من مشروع كيرزون من أن بريطانيا مستعدة لرفع الحماية عن مصر وإعلان أنها بلد مستقل ذو سيادة ، فى مقابل موافقة مصر على إبرام معاهدة صداقة دائمة مع انجلترا.

فمن المؤكد أن فكرة إعلان انجلترا نهاية احتلالها مصر ـ مع احتفاظها بما يؤمِّن ما كانت تسمِّيه مصالحها فى مصر ـ كانت فى الجو..

ولكن لماذا أعلنت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير فى سرعة لا يدفع إليها إلا خوف شديد؟..

لا تعليل لهذا ـ فى نظرى ـ إلا حركة الفدائيين ..

ويقول عبد الرحمن الرافعى(٢) : « وكان للتهديد بمقاطعة التجارة البريطانية الأثر الأكبر فى صدور هذا التصريح لأن هذا التهديد أزعج أقطاب التجارة والصناعة ورجال السياسة فى انجلترا ، وخشوا ـ إذا عمَّت حركة المقاطعة ـ أن تصاب التجارة والصناعة البريطانيتان بالبوار فى مصر ، فعمدوا إلى التسليم لمصر ببعض حقوقها المغتصبة».

(١) عبدالرحمن الرافعى: فى أعقاب ثورة ١٩١٩م (الطبعة الثانية) ١٩٦٩م ـ ص٣٨.

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٦.

وهذا أيضاً رأى وجيه ، ولكنه مستبعد . فإن مقاطعة البضائع البريطانية ـ فى ذلك الحين ـ كانت مستحيلة ، مهما نادى بها زعماء السياسة.

لأن الناس لا يستغنون عن شىء من الضروريات إلا إذا وجدوا بديله..

والمصرى ـ فى ذلك الحين ـ ما كان ليستطيع مقاطعة الأقمشة الإنجليزية مثلاً ، لأن السوق لم يكن فيها من الأقمشة إلا الإنجليزية..

وما دامت « لمبة الجاز» الموجودة فى السوق هى الإنجليزية وحدها ، فما كان المصرى ليستطيع الامتناع عن شرائها إلا إذا أراد أن يقضى الليل فى ظلام..

ولم يكن من المعقول أن يدخل المصرى صيدلية ليشترى دواء فيصرَّ على أن يكون هذا الدواء فرنسيًا..

هذا التهديد بالمقاطعة ربما كان يخيف بريطانيا على المدى الطويل..

ولكنه صدر فى ٢٢ يناير١٩٢٢م ، فمن غير المعقول أن يدفع الإنجليز إلى أن يهرولوا ويعلنوا استسلامهم فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ، أى : بعد شهر وأيام.

وإذا ذكرنا أن البريد ـ فى تلك الأيام ـ كان يرسل بطريق البحر ، فأغلب الظن أن النص الكامل لبيان الوفد بالمقاطعة لم يكن قد تُرجم وقُرئ ـ بعدُ ـ فى لندن بما هو جدير به من العناية.

لم يبقَ ـ إذن ـ إلا ما نذهب إليه من أن صدور التصريح بهذه العجلة كان نتيجة لنشاط الفدائيين..

وهذا هو الذى عنيته عندما قلت إنه عمل الشباب.. لأن الفدائيين جميعاً كانوا شباناً، ولا يكونون إلا من الشباب .. والشباب وحده هو الذى يلجأ إلى المخاطرة بحياته للوصول إلى حل سريع وحاسم..

وإلى الآن لم تُدرس حركة الفدائيين المصريين فى ثورة ١٩١٩م الدراسة التى هى جديرة بها ، وربما كان ما سنقوله عنها فى بحثنا القادم هو أول محاولة فى ذلك السبيل.

***

# فى يوليو ١٩١٩م
# تألفت أول جمعية فدائية منظمة

حرصنا فى استعراضنا لحوادث ثورة ١٩١٩م ـ منذ الإفراج عن سعد وأصحابه المنفيين فى أبريل ١٩٢١م إلى صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ـ حرصنا على أن نبيِّن أن سير العمل السياسى وحده لم يكن يسوِّغ صدور هذا التصريح فى الوقت الذى صدر فيه..

فقد صدر فى فترة انقسام داخلى خطر ، كان حقيقاً بأن يزيد طمع الإنجليز فى مصر ، ويأذن لهم فى الاستمرار فى احتلالها والتصرف فى شئونها ، على النحو المطلق الذى ساروا عليه منذ احتلالهم لهذه البلاد ..

إذ بلغت العداوة أقصاها بين هيئة الوفد وخصومها ، وكان سعد وكبار أصحابه إذ ذاك فى المنفى ، ورجال هيئة الوفد التى تكوَّنت فى القاهرة فى أثناء غياب سعد عن البلاد ، كانوا من طراز متوسط لا يقوى على مناهضة الضغط المتزايد ، الذى كان يقوم به المعتمد البريطانى الفيلد مارشال أللنبى وجيش الاحتلال ، بمعاونة ومؤازرة من السلطان فؤاد..

وكان فؤاد أفعواناً وخصماً خطيراً .. كان يعشق أرض مصر وخيراتها ، ولكنه يكره المصريين ، ويسند ظهره إلى قوة الاحتلال فى غير حياء ، ويجتاح البلاد سرقة ونهباً ..

وكانت تعاونه فى ذلك جماعة من زبانية نظَّار الزراعة ، من الطراز العتيق الجامد القلب ذى الناب الأزرق ، جعلهم مولاهم بكوات وباشوات ، وأطلقهم كالكلاب المسعورة يبحثون له ـ فى إخلاص العبد الذليل ـ عن أراضٍ وضياع وتفاتيش شاسعة تضاف إلى أملاك الخاصَّة السلطانية ، حتى زادت هذه الخاصَّة الشيطانية عن الدائرة السنِّية ، التى أسرف الخديو عباس حلمى فى تنميتها بأخسِّ الطرق ، حتى خجل من ذلك المعتمد البريطانى السير إيفلين بيرنج ـ اللورد كرومر ـ فأنشأ وزارة الأوقاف ،

وأضاف إلى مجلس النظَّار ناظراً يكون مسئولاً رسمياً عن البقية الباقية من أراضى الأوقاف التى أفلتت من براثن الخديو وصنائعه..

وكانت وزارة عدلى يكن قد قدَّمت استقالتها فى ٨ ديسمبر ١٩٢١م ولزم رئيسها بيته ، وكان عدلى آخر شخصية كبيرة موجودة فى مصر فى ذلك الحين ، يمكنها أن تُشعر المعتمد البريطانى والسلطان بشىء من الخجل ، ولهذا فقد أرخى كل منهما لنفسه العنان ومضى يعربد كيف شاء..

وكان السلطان يريد أن يعهد بالوزارة إلى أحد مواليه ، ولكن الدلائل كانت تدل على أن الإنجليز كانوا يشعرون بخطورة الموقف بالنسبة لهم ، وأنهم لا يستطيعون الاستمرار طويلاً فى تدليل السلطان ومواليه ، لأنهم كانوا فى مأزق عسير فى مصر ولابد لهم من مخرج..

ولم يكن هذا المأزق ـ فى رأيى ـ إلا ازدياد أعمال الفدائيين المصريين عنفاً وشدة ، حتى بات الإنجليز جميعاً فى مصر غير آمنين على أنفسهم وأموالهم ، فكان المخرج الوحيد هو الإسراع بالاستجابة لبعض مطالب المصريين وإلقاء مسئولية الحكم الداخلى على أكتاف حكامهم ، حتى يكونوا هم هدفاً لرصاص الفدائيين ، ويختفى الإنجليز آمنين ويمسكون بالخيوط من وراء ستار !..

**● من العسير جداً التأريخ لأى حركة فدائية:**

ـ فمن هم أولئك الفدائيون ؟

ـ وفى أىِّ ظروف ظهروا ؟

ـ وكيف كانوا يضربون ضرباتهم ؟

من العسير جدًا التأريخ لأى حركة فدائية ، لأن الفدائيين يعملون دائماً فى سرية تامة.

وسواء أكان الفدائى يعمل منفرداً أم فى جماعة ، فإن أول ما يحرص عليه ألاَّ ينتبه إليه أحد ، وهو لا يترك أى دليل يمكِّن السلطات منه إذا حامت الشبهات حوله .. فأدوات عمله دائماً فى مخبأ ، ومكان اجتماعه بأصحابه وموعده دائماً سر ، وميدان

تدريبه بعيد جداً عن متناول الأبصار .. وهو لا يكتب مذكرات ، ولا يترك أدنى قصاصة ورق تدل عليه..

وهو ـ لهذا ، فى الغالب ـ جندى مجهول..

وهو ـ مع هذا الحرص على التخفِّى ـ ليس جباناً ، بل هو الغاية فى الجرأة والإقدام. ودافعه للتخفِّى ليس الخوف على حياته ، بل الحرص على أن تستمر حركته . وإذا خانه الحظ ووقع فى أيدى البوليس ، نجده أحرص ما يكون على ألاَّ ينمَّ على أحد من شركائه..

والدافع القوى الذى يسيِّر الفدائى ـ فى العادة ـ هو إيمانه المطلق بما يسعى إلى تحقيقه والإيمان العميق الشامل وحده هو الذى يجعل شابًا يترك أمان بيته ولهو شبابه ، ليعلن الحرب على سلطة قائمة ذات قوة وخطر ، ويجعله يتحداها ويهاجمها غير مبالٍ بالنتائج..

وهذا الإيمان العميق يجعل الفدائى لا يرى حجم خصمه ، أو يراه فى حجم أقل من الواقع بكثير؛ فجماعة «الفييت ـ كونج» يتحدَّون الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها، و«رجال الجيش الإيرلندى السرى» يهاجمون بريطانيا ، و«التوبا ماروس» يتحدَّون النظم القائمة فى أمريكا الجنوبية ومن ورائها الولايات المتحدة الأمريكية ، و«الفدائيون الفلسطينيون» يهاجمون الصهيونية العالمية التى ترتجف من خشيتها الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم دول الغرب.

وإلى جانب الإيمان ، هناك جوٌّ خاص لا تقوم الحركات الفدائية إلا فيه ، وهو جو اليأس الشديد..

فالفدائى لا يعمد إلى إعلان الحرب على السلطة التى يريد أن يزعزع أركانها ، إلا إذا يئس تماماً من تحقُّق آماله عن طريق سلمى هادئ..

فما دام هناك أمل فى تحقُّق مطلبه ـ وهذا الأمل فى الغالب هو تحرير الوطن ـ فإن الظروف لا تتهيأ لتكوين الفدائى أو الجماعة الفدائية..

فإذا كان هذا كذلك ، فلابد أن الحركة الفدائية المصرية التى نتحدث عنها ، قد تكونت فى ظروف يَئِسَ الشبان المصريون فيها يأساً تاماً ، من إمكان تحرير بلادهم من

الاستعمار البريطانى على يد الكهول والشيوخ الذين كانوا يقودون الحركة القومية ..

فما هى هذه الظروف ؟..

- **بعد توقيع معاهدة فرساى فى ٢٨ يونيو١٩١٩م أظلمت الدنيا ظلاماً شديداً:**

كانت معاهدة فرساى ـ فى الحقيقة ـ أحقر معاهدة فى التاريخ !..

كانت تقوم على الحقد والانتقام والجشع وكل ما هو غير إنسانى.

باختصار ، كانت اتفاقاً بين انجلترا وفرنسا ـ بتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا واليابان وبعض دول غربية صغيرة ـ على تحويل بقية الكرة الأرضية إلى مستعمرة شاسعة ، واعتبار بقية شعوب الأرض عبيداً !

وقد تضمنت هذه المعاهدة جرائم وخيانات كبرى ، تكشف عن حقيقة الطبع الغربى وغرائزه..

فقد نسى جورج كليمانصو ولويد جورج ومن التفَّ حولهما ، أن مئات الألوف من الهنود والمغاربة والإفريقيين ، ماتوا فى ميادين الحرب فى أوربا لكى تصل انجلترا وفرنسا إلى النصر..

برغم كل هذه التضحيات ظلَّت الهند والشمال الإفريقى وبقية إفريقيا مستعمرات ، دون أى أمل فى تحسُّن الأحوال أو تفكير فى جزاء..

وبعض العرب الذين تصوروا أن الحلفاء سيمنحونهم دولة عربية يتربعون على عرشها ، وجدوا أنفسهم آخر الأمر صفر اليدين يطرقون الأبواب وسط المتسولين !

والمصريون الذين قاموا بالثورة على الاحتلال ، وظنوا أن مجرد مثول زعمائهم أمام مؤتمرات الصلح سيوقظ الضمير الأوربى ويفتح لهم أبواب الاستقلال ، وجدوا أن مؤتمرات الصلح نفسها تؤيد الاحتلال وتجعله حقيقة دولية !..

وزاد فى ألم المصريين أن الحكومة القائمة ـ وكان رئيسها محمد سعيد ( الذى ظل رئيساً للوزراء طول مدة الحرب) ـ اعتبرت توقيع معاهدة الاحتلال وتثبيت قيود الذل فى رقاب مواطنيها مناسبة سعيدة جديرة بالاحتفال !

فأمر محمد سعيد بإطلاق مائة مدفع ومدفع ـ فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد ـ ابتهاجًا بالحادث السعيد ، واعتبر يوم ١٤ يوليو ١٩١٩م يوم عيد ، عُطِّلت فيه الدواوين وتبادل سلطان مصر برقيات التهنئة مع ملك بريطانيا !

أجل ، تهنئة !.. بماذا واحسرتاه ؟!

تلك كانت نقطة الصفر فى عالم اليأس الذى كان يعيش فيه المصريون إذ ذاك..

وعندما هدرت مدافع الابتهاج بالعبودية ، انطفأت آخر شمعة من الأمل فى نفوس شباب مصر الذى ثار واستشهد..

هذا الظلام الدامس واليأس الشامل ، كانا الجو المناسب لظهور الشباب الفدائى..

نعم ؛ كان سعد وأصحابه فى أوربا ، وكانت هناك آمال فى الوصول إلى الاستقلال بطرق أخرى ، ولكن الشباب ـ وهذه ميزة من ميزاته ـ لا يثق فى حبال الأمل الطويلة التى يتعلق بها الكهول والشيوخ..

وإذن ، فإلى العمل..

**• أوائل الفدائيين:**

ولم تكن هذه هى أولى المناسبات التى ظهر فيها فدائيون مصريون فى العصر الحديث.

فعندما وافق بطرس غالى على فصل السودان عن مصر ومدِّ أجل اتفاقية قناة السويس ، ظهر الفدائى الباسل إبراهيم الوردانى واغتاله فى فبراير ١٩١٠م ، فوضع بذلك حدًا لاستهتار مهين بشئون البلاد ومصالحها..

والوردانى نموذج للفدائى الفرد ، الذى ينذر نفسه لأداء خدمة محددة لبلاده بإزاحة شخص خطر يُنزل الضرر بها..

وكان السلطان حسين نموذجًا دقيقاً من أمراء أسرة محمد على أيام الاحتلال ، أولئك الذين كانت مصر ـ فى نظرهم ـ ضيعة أورثهم إيَّاها جدهم ، وكان المصريون ـ فى حسابهم ـ أرقَّاء يزرعون لهم الأرض ، وكانوا يرون أنفسهم محاسيب للإنجليز وموظفين عندهم..

كان « ابن ذوات» جداً .. يسلِّم على الناس بأطراف أصابعه .. يخدم الإنجليز فى أمانة ، ويخدم أسرته فى أمانة .. وإلى هنا تنتهى حدود الأمانة عنده..

فقد عيَّنته بريطانيا سلطاناً على مصر بعد أن خلعت عباس حلمى ، وذلك بأمر اللفتنانت جون جرانفيل ماكسويل « قومندان الجيوش البريطانية فى مصر» بأمر صدر فى ١٩ ديسمبر١٩١٤م..

وبدأ الرجل سلطته فى جو ثقيل من خيبة الأمل والاحتقار واليأس .. وقرر فدائى مفرد هو محمد خليل ـ وكان تاجر خردوات من أهل المنصورة ـ عقاب خادم الاحتلال المتسلطن ، وحكم عليه بالإعدام . وشرع فى التنفيذ صباح الخميس ٨ أبريل ١٩١٥م بإطلاق عيارات نارية عليه ، ولكن التوفيق أخطأه فنجا السلطان وأُعدم هو شنقاً فى٢٤ أبريل ١٩١٥م..

وعقب ذلك تكوَّنت مجموعة فدائية ، قرَّرت ـ هى أيضاً ـ إعدام السلطان ؛ وأخذت تدبِّر تنفيذ الحكم فيه . وكانت هذه المجموعة تتكون من محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين ومحمود عنايت وشفيق منصور وأحمد سابق وعبد الفتاح يوسف وعبدالله حسن وعلى صادق ، وكانوا جميعاً من شباب الطلبة والموظفين.

وكان التنفيذ فى الإسكندرية فى ٩ يوليو ١٩١٥م ، بإلقاء قنبلة على عربة السلطان من شرفة منزل ، وهو فى طريقه من قصر رأس التين إلى مسجد عبد الرحمن بن هرمز، لكى يؤدى فريضة الجمعة..

كانت القنبلة « بيتية» ، ولهذا لم تنفجر .. وسنتحدث عن هذه القنابل البيتية بعد قليل..

وقام بالتنفيذ من أفراد المجموعة محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين ، وكانا ـ بلا شك ـ فدائيين أصيلين ، ولكن كان ينقصهما الثبات والتدريب الكافى ، وقد أظهرا فى المحاكمة رباطة جأش جديرة بالإعجاب ، وتحمَّلا ـ وحدهما ـ جريرة العملية، فحُكم عليهما بالإعدام شنقاً ، ثم خُفِّف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ولم تثبت إدانة الآخرين.

ومن هؤلاء الآخرين شفيق منصور المحامى ، وقد عاش ليدخل فى زمرة جماعة

فدائية جديدة فيما بعد..

ومنهم أيضاً محمود عنايت ، وهو أول من دخل ميدان الفداء من ذلك البيت الفدائى الجدير بالإعجاب ، وسيعقبه أخواه عبد الفتاح وعبد الحميد.

وفى خريف العام نفسه قام فدائى مفرد آخر ـ هو صالح عبد اللطيف الموظف بوزارة المالية ـ بمحاولة قتل إبراهيم فتحى وزير الأوقاف ، وكان من كبار موالى القصر السلطانى ودار الحماية..

**• وفى يوليو ١٩١٩م تألفت أول جمعية فدائية منظمة تنظيماً دقيقاً:**

أخذت معلوماتى عن تأليف هذه الجمعية ونشاطها من واحد من كبار منشئيها ممن مدَّ الله فى عمرهم ونشاطهم إلى يومنا هذا ، وهو الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا (١) .

كان ـ إذ ذاك ـ طالباً فى مدرسة المعلِّمين العليا ، وهو من كبار المجاهدين فى سبيل مصر، اشترك اشتراكًا فعَّالاً فى تنظيم أول جمعية فدائية مصرية على أسس علمية دقيقة، واضطر بعد ذلك إلى الفرار من مصر إلى إيطاليا حيث قضى سنوات طويلة منفيًا ، واشترك فى نشاط الشباب الوطنى المصرى العامل فى أوربا إذ ذاك . ثم عاد إلى مصر بعد تأليف وزارة سعد ، ودخل سلك التعليم وظل فيه حتى أُحيل إلى المعاش مديراً عامًا لمنطقة القاهرة التعليمية الشمالية.

وهو ـ على ما أعلم ـ أحد ثلاثة مدَّ الله فى عمرهم من رجال الفداء الأول ، والاثنان الآخران هما عبد الفتاح عنايت وعريان يوسف سعد..

بدأ الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا وعريان يوسف سعد وزملاؤهما العمل الفدائى المنظم فى يوليو ١٩١٩م ، وكان من رأيهم أن العمل السياسى لن يحقق ـ وحده ـ الاستقلال.. لأن العدو قوى وخبيث ووقح ، فهو لن يفهم إلا منطق القوة.

بدا ذلك واضحاً بعد إخفاق الوفد المصرى فى الحصول على أى نتيجة فى مؤتمرات الصلح ، بل تعمَّد المنتصرون إهماله وترك رجاله يخطبون فى قاعات خالية ! ..

لابد ـ إذن ـ من إرهاب الإنجليز وعملائهم .. لابد أن يشعروا بأنهم غير آمنين على أنفسهم وأموالهم فى مصر ، لأن شباب مصر لا يعترف بالحماية التى فرضتها بريطانيا

(١) كلمة «باشا» هذه جزء من اسمه ، وليست لقبًا حصل عليه.

على مصر ، ويتبرأون من السلطان فؤاد الذى احتفل بتثبيتها بإطلاق المدافع كأنها عيد قومى عظيم..

وبينما كانت مدافع البشرى السوداء تدوِّى ، كانت تلك الحفنة من الشباب تعلن الحرب على بريطانيا فى مصر ، وترسم خطة الهجوم فى بدروم منزل فى حى الحلمية..

كان لديهم عدد قليل جدًا من المسدسات ، وكان الحصول على الرصاص عسيرًا ، ولهذا اتجه الاهتمام نحو عمل قنابل يدوية..

كان سيد محمد باشا طالب علوم ، ولهذا كانت لديه فكرة عن المفرقعات.

واهتدى مع أصحابه إلى تركيب المادة المفرقعة ، على أساس حامض البكريك وكربونات البوتاسيوم وحامض الكبريتيك..

ولكى يصنعوا من هذا التركيب قنبلة ، أخذوا ماسورة من الحديد وقطعوها قطعاً لتكون من كل قطعة قنبلة..

واتصلوا ـ لهذا ـ بعامل شهم من عمال الترسانة هو عثمان الطوبجى فكان يأتيهم بالمواسير ويقطعها ويقفلها من جانب واحد ، ويسلِّمها لهم لكى يضعوا المخلوط المفرقع فيها ويغلقوها..

**• الحاج أحمد جاد الله.. مواطن شهم وجندى باسل:**

وعرَّفهم عثمان الطوبجى بالحاج أحمد جاد الله.. وكان أسطى خرَّاطاً فى الترسانة ، وفاتحوه فى أن يصنع لهم القنابل بالجملة ، فقال لهم الرجل الشهم :

ـ ولماذا نقنع نحن بتقطيع المواسير؟..

لماذا لا نشترك فى العمل الفدائى مثلكم ؟..

اسمعوا : لنتقاسم العمل.. علينا الكفار ، وعليكم المصريون..

وكان يريد بالكفار الإنجليز..

وانضم إلى الجمعية عدد آخر من عمال العنابر .. ومضى العمل : العمال يصنعون أجساد القنابل ، والطلاب يركِّبون المفرقع ويصنعون القنبلة..

وكانوا يجرِّبون بعض قنابلهم ويتمرنون على إلقائها فى الغابة المتحجرة قرب حلوان..

وكان من بين الجماعة فرقة لاختطاف جنود الإنجليز وقتلهم وأخذ السلاح الذى يحملونه..

وكان جنود الإنجليز إذ ذاك كثيرين جدًا فى القاهرة ، وكانت تسليتهم المحببة هى قضاء الليل فى حانات حى الساقطات ـ الذى عُنى الإنجليز بتنظيمه والإشراف عليه للترفيه عن جنودهم ـ فى بعض الشوارع والحارات على جانبى شارع كلوت بك..

وكان جنود الإنجليز يسرقون الناس ويسلبونهم فى الشوارع علنًا ، لكى يحصلوا على النقود اللازمة للعربدة..

وكان من المألوف جدًا أن تلتقى بأحد المواطنين فى ميدان العتبة الخضراء أو شارع محمد على مجموعة من جنود الإنجليز سكارى ، فيحيطوا به ومسدساتهم مشرعة نحوه ويطالبوه بإعطائهم كل ما معه ..

وكان جنود الإنجليز والأستراليين يستوقفون الترام ويجرِّدون ركَّابه من نقودهم تحت فوهات المسدسات..

لهذا سمَّاهم الحاج أحمد جاد الله بالكفار ، ورأى أن يكون القصاص منهم من نصيبه ونصيب زملائه العمال..

وكان العمال ينتظرون الجنود السكارى فى الحوارى المظلمة فيستدرجونهم إلى حى الدرَّاسة ، وهناك فى التلال المؤدية إلى المقابر تُخمد أنفاس الإنجليزى وينتقل سلاحه ورصاصه إلى أيدى الفدائيين..

وهذا بعض ما عناه الحاج أحمد جاد الله عندما قال : علينا الكفار ، وعليكم المصريون..

**• التجربة الأولى هزت كيان مصر ، وإن لم تنجح:**

وعندما أحس رجال الجمعية أنهم أتقنوا صنع القنابل وتمرَّنوا على إلقائها تمريناً كافياً، قرَّروا أن يقوموا بعمل هائل..

فى ذلك الحين كان يوسف وهبة باشا عدو الشعب رقم واحد..

فقد كانت دار الحماية قد أعلنت فى مساء ١٤ نوفمبر ١٩١٩ م قرار بريطانيا إرسال

لجنة ملنر إلى مصر ، للتفاهم مع الحكومة فى وضع مصر فى ظل الاحتلال..

وبذلك تجاهلت بريطانيا الوفد الرسمى الموكَّل من الأُمَّة للمطالبة بحقوقها ، وكان رجاله برئاسة سعد زغلول لا يزالون فى باريس ولندن ، بعد انتهاء مهرجان فرساى وتوزيع الأسلاب وتثبيت أغلال الاستعمار والاحتلال فى رقاب التعساء ..

وكانت حالة سعد ووفده ـ ومصر كلها بالتالى ـ فى ذلك الحين تعيسة حقًا..

واستقال حسين رشدى ، لأنه رأى أن تجاهل الوفد وتقرير إرسال لجنة ملنر خيانة والتفاف لطعن مصر من خلف..

ووسط ذلك الجو المليء باليأس والألم والمرارة ، تقدَّم يوسف وهبة باشا وقَبِلَ تأليف وزارة تقوم بالتوقيع على محضر تسليم مصر للإنجليز..

وعمَّ السخط على يوسف وهبة ووزرائه ، واعتبرهم الشعب خونة يستحقون الإعدام..

وثارت حمية أقباط مصر المخلصين ، فعقدوا اجتماعاً جليلاً فى الكنيسة المرقسية يوم ٢١ نوفمبر ١٩١٩م برياسة المواطن الشهم القمص باسيليوس وكيل بطريركية الأقباط ، وأعلنوا سخطهم على يوسف وهبة وتبرَّأوا من فعلته ، وطلبوا إليه أن يستقيل ويوارى عاره فى ظلال الخمول ليكفِّر عن إثمه الكبير..

وكان هذا مظهراً جليلاً من مظاهر وحدة مصر واتحادها الكامل وإيمان أهلها جميعاً ـ مسلمين وأقباطاً ـ بالوطن وحقه واستعدادهم للتضحية فى سبيله..

وكان إجماع أهل مصر كلهم على إنكارهم ليوسف وهبة ووزارته حكماً عليه بالإعدام.

وشعرت جمعية الفدائيين أن تنفيذ الحكم يدخل فى اختصاصها.. وشرعوا فى رسم الخطة..

وكانوا فى غاية الحكمة فى القرار الذى اتخذوه..

كان يوسف وهبة قبطياً ، فكان لابد أن يقتله قبطىٌّ مثله ، فيكون هذا برهانًا بليغاً على وحدة هذا الوطن وأهله أجمعين..

وتصدَّى للقيام بالعمل عريان يوسف سعد ، وكان شاباً فى زهرة العمر ، طالباً فى كلية الطب ، يحمل بين جنبيه قلباً باسلاً وإيماناً صادقاً بمصر.

وفى صباح ١٥ ديسمبر ١٩١٩م كان ينتظر قرب النادى الإيطالى فى شارع سليمان باشا ، ومعه قنبلتان ـ من النوع « البيتى » الذى ذكرناه ـ ومسدس صغير .. وكان قد وطَّن نفسه على الموت..

كانت خطته أن يلقى القنبلة الأولى فالثانية على سيارة يوسف وهبة عندما تمر أمامه ، ثم يقتل نفسه بمسدسه إذا وجد أنه سيقع فى أيدى الجنود..

ومرت سيارة رئيس الوزراء يوسف وهبة ، فألقى عليها عريان قنبلته الأولى فالثانية ، وانفجرتا..

ولكن عمر الشقىّ بقىَ .. لم يُصب رئيس الوزراء العنيد بأذى !

وأخرج الفدائى مسدسه ليضع حداً لحياته ، ولكن الجنود أسرعوا بإمساكه..

وقُدِّم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية إنجليزية ، وكانت هذه المحاكم الإنجليزية مختصة بالنظر فى الجرائم السياسية..

وحكمت المحكمة بسجنه عشر سنوات مع الأشغال الشاقة..

وقد كتب عريان فيما بعد مقالات عن حياته فى السجن تعتبر قطعة فنية جميلة ، قرأناها فى مجلَّة « مجلَّتى» التى كان يصدرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد..

وقد أُفرج عن هذا الفدائى الباسل سنة ١٩٢٣ أو ١٩٢٤م ـ لا أذكر على وجه التحديد ـ ثم عيَّنه سعد فى سكرتارية مجلس الشيوخ ، ثم انتقل إلى الجامعة العربية ، ولا زال عمره ممدوداً إلى يومنا هذا والحمد لله.

**• الفدائيون والمحرضون السياسيون:**

وهنا ينبغى التفريق بين الفدائيين والمحرِّضين السياسيين..

والحقيقة أن المحرِّض السياسى ، الذى يعمل على الاحتفاظ بحماس الجماهير ، عن طريق الخطب والمقالات أو الدعوة السرية والتحريض على الثورة وأعمال العنف ، هذا المحرِّض يعتبر فى جملة جنود المعركة ورجال العنف ، ولكنه ليس فدائيًا بمعنى الكلمة ،

لأن الفدائى محارب وليس رجل سياسة .. إنه ـ فى العادة ـ مواطن شاب شديد الحماس والإيمان ، لا تعجبه أساليب القادة السياسيين فينفصل عن تيَّارهم ويتحول إلى جندى ، ويعلن الحرب على أعداء بلاده ويهاجمهم..

أما المحرِّض السياسى فهو رجل سياسة بالغ الحماس ، ولكنه يظل سياسياً لا فدائياً .. فهو يجاهد فى سبيل بلاده جهاداً باسلاً رائعاً ، ولكنه لا يعلن الحرب السافرة على الخصوم ، ولا يلجأ إلى السلاح ، ويحرص على أن ينام فى سريره كل ليلة ..

نقول هذا لأن جماعة من المتطرفين السياسيين كان يرأسها عبد الرحمن فهمى ، قامت بعمل ضخم وعظيم فى أثناء وجود الوفد المصرى فى باريس أيام مؤتمرات الصلح ، وكذلك أيام الخصومة بين سعد وعدلى وما تلاها من أيام عصيبة على الوطن..

كان عبد الرحمن فهمى ـ إذ ذاك ـ من شباب المجاهدين الذين يقفون وراء سعد وأصحابه ، وكان سكرتيراً للَّجنة المركزية للوفد التى كانت تعمل فى أثناء غياب سعد ، وكان يقود جماعة من أمثاله من الشباب ، ما بين طلبة مدارس عليا وطلبة مدارس ثانوية ومحامين وصحفيين (١).

وكان عمل هذه الجماعة يشمل الحضَّ على الثورة وإظهار عجز الحكومة وخيانتها أمام الناس ، والدعوة إلى إسقاطها .. ومهاجمة رجال القصر وبيان أنهم عملاء للإنجليز وأعداء لشعب مصر ، والقول بضرورة خلع السلطان فؤاد والوقوف موقف الحزم إزاء الإنجليز..

وليس من الثابت أن الاغتيال السياسى كان يدخل فى برنامج هذه الجماعة ، وعلى أى حال فقد وُجِّهت هذه التهمة إلى عبد الرحمن فهمى عندما قبضت السلطات عليه وعلى معظم أفرادها ، وقيل يومئذ إنها كانت تسمى «جمعية الانتقام»..

وقد بذلت هذه الجماعة نشاطاً واسعاً فى أثناء وزارتى محمد سعيد ويوسف وهبة ، وكان لهذا النشاط أثر بعيد فى توحيد موقف الأمة من وزارة محمد سعيد التى كانت تابعة ـ بالفعل ـ لوزارة المستعمرات الإنجليزية ، وكذلك فى إخفاق لجنة ملنر أيام وزارة يوسف وهبة.

---

(١) انظر أسماءهم فى الجزء الأول من « ثورة سنة ١٩١٩م » لعبد الرحمن الرافعى ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٥ ـ ٦٦.

ومن الممكن جداً أن يكون لجهودها أثر فى توجيه بعض الشباب المتحمِّس إلى التفكير فى الاغتيال السياسى..

وعلى أى حال فقد كان الجو كله فى مصر مشحوناً بالغضب ودوافع الهياج ، وكانت أقل بادرة تؤدى إلى تظاهر ضخم وقيام الجمهور بأعنف الأعمال دون أىٍّ مبالاة بالإنجليز وجنودهم ، كما حدث فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٩م عندما ثارت ثائرة الناس على إثر سماعهم فرقة الموسيقى فى « كشكها » المشهور فى حديقة الأزبكية تعزف النشيد البريطانى بعد النشيد المصرى ، فثارت ثائرة الجمهور ، وفى الحال نشأت مظاهرة اخترقت شوارع القاهرة وهى تتضخم باستمرار ، ووقعت حوادث ضرب واعتداء حتى تدخَّل البوليس وقبض على بعض المتظاهرين.

ولم تكن السلطة الحاكمة ـ مصرية أو بريطانية ـ بأحكم من جماهير طلاب المدارس فى تلك الأيام ، فقد كان الفزع يتملَّكها لأقل بادرة ، فتلجأ إلى أعنف الأساليب دون مسوِّغ ..

وفى ذلك الحين ـ ولجنة ملنر فى الطريق ـ كثرت الاعتقالات وقرارات تحديد الإقامة والإبعاد إلى الأرياف ، ومن هذا ما لجأ إليه الجنرال أللنبى من استدعاء محمود سليمان باشا رئيس اللجنة المركزية للوفد ، وإبراهيم سعيد باشا وكيلها ، وعبد الرحمن فهمى سكرتيرها العام ، وإصدار أمره إلى الأوَّلين بالسفر إلى قريتيهما ، ووضع الأخير تحت المراقبة.

وبعد ذلك ـ وفى سياق «هيستيريا» استولت على أللنبى ـ جعل يدفع جنوده إلى ارتكاب حماقات سخيفة ، مثل اقتحامهم للأزهر فى ١١ ديسمبر ١٩١٩م ، وفى سياق هذه «الهيستيريا» قبضت السلطة العسكرية على عبد الرحمن فهمى وسبعة وعشرين من زملائه ، بتهمة تأليف «جمعية الانتقام» التى أشرنا إليها ، وأقامت عليهم الحجة بشهادة جاسوس حقير اسمه عبد الظاهر السمالوطى..

بدأت محاكمات هذه الجمعية فى ٢٠ يوليو ١٩٢٠م ، ودامت ثلاثة شهور ، فلم يصدر الحكم فيها إلا فى ٦ أكتوبر ١٩٢٠م . وكانت ـ فى الواقع ـ مظاهرة استعمارية صريحة ، قامت على حين كانت لجنة ملنر تحتضر فى مصر ، والغرض منها إرهاب

الرأى العام وإشعاره بقوة السلطة البريطانية ..

ولم تحقِّق هذه المسرحية أىَّ هدف من أهدافها ؛ فقد استمر الجمهور فى احتقاره للجنة ملنر وللإنجليز جميعاً ، وعلى رأسهم قائدهم العام ، الذى كان لا يكتب شيئاً إلا وقَّع عليه بإمضاء أجوف يرنُّ فى الأذن ، كأنه اسم شخص من شخوص «أوبريت»من تأليف فرانزليهار: الفيلد مارشال إدموند هنرى هاينمان أللنبى ، القائد العام لجيوش جلالة الملك فى مصر!

المهم أن هذه المحكمة ـ التى كان يرأسها البريجادير جنرال لوصون ، ويشترك فيها المستشار ثورب ، ويتولى رفع الدعوى فيها المستر ماكسويل ـ أصدرت سبعة أحكام بالإعدام على عبد الرحمن فهمى وستة آخرين (خُفِّفت كلها إلى السجن ١٥ سنة) وأحكاماً أخرى بسجن طويل وجَلْد وغرامات..

ولم يمكث أحد من أعضاء هذه الجمعية فى السجن أكثر من ثلاث سنوات أو أربع ، فقد أفرجت عن بعضهم وزارة يحيى إبراهيم سنة ١٩٢٣م ، وعن الباقين وزارة سعد زغلول سنة ١٩٢٤م.

ولم يكن لهذه المحاكمات الطنَّانة أىُّ أثر على نشاط الفدائيين ، فقد سارت عملياتهم فى طريقها كأن شيئاً لم يحدث..

وربما كان لها بعض الأثر على المهيِّجين والمحرِّضين السياسيين ، لأن هؤلاء ليسوا جنوداً ، وإنما هم مجرد متحمسين لا يصل بهم الحماس إلى تعريض أنفسهم للخطر..

وفى العادة لا يكون لأعمال المتطرفين والمحرِّضين والمهيِّجين أثر حاسم فى الحركات القومية..

وإنما يكون الأثر الحاسم للثوريين والفدائيين والإرهابيين والجماعات المقاتلة ؛ يصدق هذا على كل الثورات : الثورة الفرنسية ، والثورة الروسية ، والثورة الإيرلندية ، والثورة الصينية ، وثورة الفييتنام ، والثورة الجزائرية ، وثورة ١٩١٩م ، وثورة ٢٣يوليو١٩٥٢م.

***

# مواجهة العدو بسلاحه

استمر نشاط الفدائيين ضد الإنجليز والمتعاونين معهم.

استمروا يعملون فى صمت ، غير مبالين بالسلطة البريطانية وجيوشها ، ولا بالحكومة السلطانية ورجالها..

مضى جناح العمال فى الحركة الفدائية يتصيَّد الجنود الإنجليز ، ويقضى عليهم ويستولى على سلاحهم وذخيرتهم ، فى تلال «الدرَّاسة» حيناً وفى ناحية «الحوض المرصود» حيناً..

ومضى جناح الطلبة والموظفين يتصيَّدون العملاء والإنجليز..

ففى ٢٨ يناير ١٩٢٠م أُلقيت قنبلة على إسماعيل سرى وزير الأشغال فى وزارة يوسف وهبة ، فانفجرت القنبلة بعد الوقت المحدد بثوانٍ قليلة ، ونجا وزير الأشغال وكذلك الفدائى ، الذى لم يعثر عليه أحد..

وفى ٢٢ فبراير ١٩٢٠م جاء دور محمد شفيق وزير الزراعة ، وأفلت أيضاً . ووقع الفدائيان ـ وهما عبد القادر شحاتة وعباس حلمى ، وكانا طالبين فى المدرسة الإلهامية الثانوية فى حدود العشرين من العمر ـ وحُكم عليهما بالإعدام ، ثم خُفِّف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة..

ونجا أيضاً حسين درويش وزير الأوقاف : أُلقيت عليه قنبلة فى ٨ مايو ١٩٢٠م ، فانفجرت ولم تُصبه بسوء ولكنها جرحت سائق السيارة، وقتلت شاباً أراد له سوء حظه أن يلتقى بالموت فى ذلك الزمان والمكان..

وكان هؤلاء الوزراء ـ وخاصة حسين درويش ـ من أشد الناس تفانياً فى خدمة السلطان والسراى..

لا ندرى لماذا يكون إيمان بعض الناس بالمال والجاه أعمق بكثير من إيمانهم بالله والوطن !!

وكانت مسألة عدم انفجار هذه القنابل أو تأخُّر انفجارها عن موعده مسألة طبيعية . فالقنبلة اليدوية ربما كانت من أصعب الأسلحة صنعاً واستعمالاً ، لأن تركيبها ينبغى أن يتم بغاية الدقة ، وموادها لابد أن توزن بأجزاء الجرام ، والصفائح المعدنية الفاصلة بين المواد لابد أن تُصنع من معادن معيَّنة بسُمك دقيق جداً ، وإذا زاد وزن القنبلة أو نقص لم تُصب هدفها ، لأن الذى يتمرَّن على استعمالها يلقيها بقوة معيَّنة لا تكون دقيقة إلا إذا كان الوزن واحداً فى كل حالة.

ولهذا ففى أعمال الفدائيين فى العالم إذ ذاك ـ لا فى مصر فقط ـ كان من النادر أن تنفجر قنبلة يدوية « بيتية» فى وقتها ومكانها المعيَّنين بالضبط..

وكذلك «المسدَّسات» ، فإن استعمالها بدقة عسير جداً.. ويحتاج الإنسان إلى تدريب طويل وثبات أعصاب كبير لكى يصيب الهدف بالمسدَّس ، ولا يصيب هدفه به بدقة إلا مَنْ تمرَّن على التصويب والإطلاق وإصابة الهدف شهوراً طويلة ينفق فيها رصاصات كثيرة.

وكان الفدائى المصرى ـ إذ ذاك ـ لا يحصل على الرصاصات الخمس إلا بشق النفس كان بعضهم ـ فيما قيل لى ـ يتمرَّن بإطلاق رصاصتين فقط ويدَّخر الثلاث الباقية ليقتل بها ثلاثة وزراء !

ولهذا فقلما أصاب الفدائيون فى ذلك العصر أهدافهم ، سواء استعملوا القنابل «البيتية» أو المسدَّسات ، خاصة أنه لابد للقنبلة المُحكمة فى ذلك العصر من أن تُركَّب على أساس النيتروجليسرين ، ويكاد يكون من المستحيل ـ عملياً ـ تركيب قنبلة على هذا الأساس فى غرفة صغيرة ليس فيها إلا البدائى من أدوات الوزن والتركيب الكيميائى واللِّحام . لقد حاول بعض المتحمسين فى تلك الأيام صناعة القنبلة اليدوية من «كوز» يشترونه من عند السمكرى ، فلقوا حتفهم فى أثناء العمل أو فى أثناء التجربة الأولى ، ولقد مات فى يوم واحد اثنان من الشباب قرب حلوان ـ وهما يجرِّبان إلقاء قنابل صنعت فى «أكواز» ..

ولكن المهم أن الفدائى يُرهب ويُرعب ، والقنبلة التى لا تصيب ترعب كالقنبلة التى تصيب تماماً . والرصاصة الطائشة ربما أخافت أكثر من الرصاصة المُحكمة .. ولهذا فقد

ملك وزراء يوسف وهبة رعب شديد ، وكانت التنبيهات عليهم ـ من السلطات البريطانية ـ أن يلصقوا أجسادهم بمقعد السيارة ما أمكن ، فلا تظهر رءوسهم أو أجزاء منها من زجاج السيارة .. وبهذا الشكل كانت السيارات تمضى بهم إلى الوزارات..

ولهذا أيضاً سخر اللورد ملنر من يوسف وهبة وخليفته فى رئاسة الوزارة ـ محمد توفيق نسيم ـ ووزرائهما ، فقال عنهم فى تقريره : «يصعب على المرء أن يفى هذين الرئيسين وسائر رفاقهما الوزراء حقهم من المدح والإطراء ، على ما أبدوا من الشجاعة(!) والغيرة الوطنية (!!) بتسلمهم مقاليد الأحكام فى زمن كانت بلادهم تعانى فيه شدة أزمة كهذه ، وكانت حياتهم مهددة بخطر دائم..».

ولهذا أيضاً أمر الإنجليز بأن يُرفع معاش الوزير ـ الذى يتولى الوزارة بعد عشرين سنة من الخدمة فى وظائف الدولة ـ إلى ١٥٠٠ جنيه فى السنة بصفة دائمة..

و١٢٥ جنيهاً فى الشهر فى ذلك الزمان تساوى بجنيهات أيامنا هذه ١٥٠٠ جنيه ، وربما أكثر..

وقد قرَّر الإنجليز ذلك لكى يسهل عليهم الحصول على وزراء..

وفى ١٩ مايو ١٩٢٠م استقالت وزارة يوسف وهبة..

وفى ٢٢ مايو١٩٢٠م تألفت وزارة محمد توفيق نسيم الأولى من نفس الوزراء ، عدا ثلاثة جدد غامروا بحياتهم طمعاً فى الراتب والمعاش والمكاسب!

وفى١٢ يونيو١٩٢٠م وقع الاعتداء على «محمد توفيق نسيم» ..

وكان الفدائى الذى أقدم على هذا العمل هو إبراهيم حسن مسعود من موظفى حسابات مصلحة الصحة . وأصيب نسيم بجروح ، وحكم على إبراهيم بالإعدام ونُفِّذَ فيه الحكم..

**• العمل الفدائى يحقق هدفه:**

وبرغم ذلك التوفيق القليل ، فقد أتت أعمال الفدائيين بنتيجة .. فقد فشلت لجنة ملنر فشلاً ذريعاً كما أرادت لها الأمة..

ولولا الفدائيون المتربصون بكل من تحدِّثه نفسه بالتعاون مع المحتلين لما عدم الإنجليز

من يُقدم على التعاون معهم.. وتألفت وزارة عدلى يكن برضاً من الأمة..

ثم وقع الخلاف بين سعد وعدلى على رئاسة وفد المفاوضة..

وسافر عدلى ليفاوض كيرزون على كره من الأمة..

ولم تنجح المفاوضات بسبب اختلاف سعد مع عدلى ، فإن المفاوض الإنجليزى ـ اللورد كيرزون ـ شعر أن مركز عدلى ضعيف ، فطمع فى أن يحصل منه على الوثيقة المشتهاة التى تجعل مركز الإنجليز فى مصر شرعياً ، ولكن عدلى ـ ذلك الوطنى الكريم والقاضى النزيه ـ رفض وقدَّم استقالته..

وأرادت انجلترا ـ بعد ذلك ـ أن تُرهب المصريين ليستجيبوا لمطالبها فلم تُوفَّق : استعملت أقسى وسائل الإرهاب ، ونفت سعداً وصحبه إلى «سيشل»..

وعاد الفدائيون إلى العمل..

ففى صباح ٥ يناير ١٩٢٢م أطلق فدائىٌّ الرصاص على متعاون خطر ، هو محمد بدر الدين مراقب الجنايات بإدارة الأمن العام ، فأصابه بإصابات بالغة..

وكان للحادث دوىٌّ بعيد فى البلاد ، نظراً لكراهية الناس لهذا الرجل الذى كان يقوم بتعذيب المعتقلين السياسيين.. ورسم الرسامون صوراً يدوية ملونة لحادث إطلاق النار عليه ، واشترى منها الناس ألوفاً علَّقوها فى بيوتهم ومحلاَّتهم التجارية..

وفى خلال فبراير ١٩٢٢م قُتل اثنان من الإنجليز وشُرع فى قتل ثالث.

وقد ظل منصب الوزارة خالياً ـ بعد استقالة عدلى ـ أكثر من شهرين..

وفى أثناء ذلك تشجعت الهيئة الوفدية فى مصر فأذاعت فى ٢٣ يناير ١٩٢٢م بيانها بتنظيم المقاومة السلبية أو العصيان المدنى ، ووقف دولاب الأعمال فى مصر..

ووقفت انجلترا فى حيرة..فإن رعاياها فى مصر أصبحوا يعيشون فى خوف شديد ليل نهار.. والأجانب ـ الذين قالت إنها تحميهم ـ ملكهم رعب عظيم..

ولكى تخرج من هذا المأزق بدأت اتصالاتها بعبد الخالق ثروت ، وشعر ثروت بأنه فى مركز يمكِّنه من فرض شروط ، وكانت شروطه مقدمة لصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م..

وصدر التصريح فى وقت لم يكن أحد يتصور صدوره فيه..

وأعود فأقول إننى لا أردُّ صدور هذا التصريح إلى العمل الفدائى وحده .. بل أقول إنه أسرع به ، وفرض على بريطانيا أن تلين وتتساهل فى وقت كانت قد بدأت فيه تعود إلى الشدة والعنف والاضطهاد ..

السياسيون مهَّدوا الطريق ، وساروا بالقضية فى طريقها ، وأثبتوا لبريطانيا أن مصر لن تستكين أبداً ، وأنه لا سبيل للتفاهم معها إلا بعد الاعتراف باستقلالها مقدَّماً.

وكان من الممكن أن يستمر الموقف على هذه الحال سنوات بعد سنوات.. وماذا تخسر بريطانيا؟ .. إنها دولة استعمارية ورجالها يعتمدون دائماً على الصبر والمطاولة لتحقيق ما يريدون .. ولكن الفدائيين سلَّطوا عليهم سيف الرعب..

والإنجليز ـ بالذات ـ لا يخيفهم شىء مثل الفدائى الصامت الذى يتربص لهم عند منعطف كل طريق..

إنهم لا يرهبون الدخول فى المعارك الكبرى ، ولكنهم لا يحتملون العيش طويلاً فى ظل الإرهاب .. كان هذا حالهم فى مصر فى العصر الذى نتحدث عنه ، وكان هذا حالهم مع الإيرلنديين .. وهذا ما جعلهم يتركون «عدن» ويخرجون منها منذ سنوات قلائل..

ولا يظنَّ أحد أننى أبالغ فى تقدير عمل الفدائيين المصريين ، لأنك لا تستطيع تعليل مسارعة الإنجليز بإصدار تصريح ٢٨ فبراير وإعلان سقوط الحماية ، إلا إذا كان دافعهم إلى ذلك الرغبة فى التخلص من موقف يعسر عليهم احتماله لزمن طويل..

وإليك دليلاً واحداً يغنى عن كثير : قال اللورد أللنبى (المندوب السامى) فى خطاب بعث به إلى عبد الخالق ثروت فى مايو ١٩٢٢م ، أى : بعد شهور قليلة من صدور تصريح ٢٨ فبراير وتأليف ثروت وزارته على أساسه : «إن عدم الاهتداء إلى مرتكبى تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة العقاب ، يدلاَّن أوضح دلالة على عدم كفاية التدابير التى اتُّخذت لمنع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية لتجد نفسها ـ تلقاء هذه الحالة ـ مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع عليه اعتداء من الأجانب وتعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير كفاية

التعويض الذى تمنحه الحكومة المصرية أو عدم كفايته..».

رسالة تدل على هلع..

ومن الغريب أن عبد الرحمن الرافعى لم يعط العمل الفدائى حقه من الأهمية ، بل هو يستنكر أعمال الفدائيين ويعتذر عنها قبل إيراده إيَّاها ، يقول: «وإنَّا ـ مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه ـ نذكر فيما يلى تسجيلاً للوقائع التاريخية من حوادث الاعتداء بترتيب وقوعها »(١)..

وهو يقول هذا بعد أن يسرد محاكمات الثورة ، ويعدِّد الأحكام الجائرة التى أنزلتها المحاكم العسكرية البريطانية بكل مواطن ثبت اشتراكه فى الثورة ، أو قيامه بأى عمل عدائى ضد المحتلين ، وفى قضية واحدة منها أصدرت المحكمة الإنجليزية حكماً بإعدام ٥١ مواطناً من أهل «دير مواس» بمديرية أسيوط..

وأُعدم ثلاثة من المصريين فى قضية قُتل فيها إنجليزى فى «الواسطى» ، وفى القضية نفسها حُكم على ثلاثة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وهذه كلها كانت اعتداءات إجرامية على المواطنين المصريين ـ وإن تمت على يد محكمة عسكرية ـ لأن قضاتها جلاَّدون . ومثل هذه الأحكام تصدرها اليوم سلطات الإرهاب الصهيونى على أهالى الأراضى المحتلة فى فلسطين ، والغرض منها إبادة شعب بأسره.

ومع هذا يستنكر عبد الرحمن الرافعى أعمال الفدائيين المصريين ، وكأنه كان ينتظر أن نظل نطرق أبواب الإنجليز فى أدب بالغ حتى يخجلوا من أنفسهم ويرحلوا..

**• وانتشرت جمعيات الفدائيين فى أنحاء البلاد:**

وكلما اشتد الإنجليز وعملاؤهم فى أعمال العسف ضد الوطنيين ، زادت روح الفداء قوة وكثر الفدائيون وجمعياتهم..

والحق أن الفدائيين كانوا أكثر عدداً من الإحصاء الذى يقدِّمه عبد الرحمن الرافعى وغيره ممن أرَّخوا لفترات من تاريخ ثورة ١٩١٩م لأن الكثيرين منهم كانوا يضربون

(١) ثورة سنة ١٩١٩م ، لعبد الرحمن الرافعى ، جـ ٢ ، ص٨٤.

ضربتهم ويفرُّون ويلزمون الصمت بعد ذلك ، حامدين الله على القيام بالواجب والفوز بالسلامة.

ولكن القليل الذى كُشف أمره من جمعيات الفدائيين ، والكثير الذى لم يُكشف النقاب عن فاعليه ، يدلاَّن على أننا فى الحقيقة أمام جيش حقيقى يعمل ـ فى الظلام وفى صمت ـ على إزهاق أرواح المحتلين وأعوانهم..

ومن يرجع إلى جرائد هذا العصر يجد مادة حفيلة من أخبار أعمال الفدائيين ومحاكمات مَنْ وقع فى أيدى السلطات منهم .. ونكتفى هنا بالإشارة إلى ما سُمِّى بقضية المؤامرة السياسية التى جرت محاكماتها فى شهور أبريل ومايو ويونيو ويوليو ١٩٢٣م وفاضت بتفاصيلها أعمدة الصحف..

ونحن نذكرها هنا ، لأن الجمعية التى كان ينتمى إليها المتهمون نشأت وبدأت تباشر أعمالها من أبريل١٩٢٠م ، واستمرت إلى سبتمبر ١٩٢٢م ، عندما وقع أفرادها فى أيدى البوليس..

وكان ميدان نشاط الجمعية ـ كما كشفت التحقيقات ـ واسعاً ، ولكنه كان موجَّهاً إلى صميم الاحتلال وأنصاره..

فقد تخصَّص أعضاؤها فى قتل الإنجليز واغتيال شهود الإثبات أمام المحاكم العسكرية ، الذين كانوا يشهدون ضد الفدائيين ويتعاونون مع السلطات البريطانية فى الكشف عنهم..

وكانوا يوزِّعون الأسلحة والمنشورات الثورية..

وكان مؤسِّسو هذه الجمعية والقائمون بإدارتها وتنفيذ أخطر أعمالها ـ كما أظهرت التحقيقات ـ ثلاثة من الجنود المجهولين ، هم : إبراهيم خليل نظير ومحمد دسوقى مصطفى وعلى فهمى على . وكان معهم اثنا عشر شابًا آخرون يشتركون معهم فى كل وجوه نشاط الجمعية ، وخاصة محمد الشافعى البنا ومحمد كامل عبد الخالق..

واتضح من التحقيقات أن الجمعية قامت بعدد كبير من العمليات ، وأنها كانت ـ بالفعل ـ مجموعة قادرة على إلحاق الكثير من الأذى بالعدو..

عيبها الكبير كان كثرة العدد ، وهو دائماً نقطة ضعف فى تكوين مثل هذه الجمعية ، لأن الأسرار لا تظل أسراراً مع العدد الكبير..

وبدأت محاكمة أعضاء الجمعية ـ بعد تحقيق طويل دام أكثر من عام ـ فى أبريل ١٩٢٣م ، وانتهت بالحكم بإعدام إبراهيم خليل نظير ومحمد دسوقى مصطفى وعلى فهمى على ، وبالسجن مدداً متفاوتة على باقى الأعضاء..

**• واستمرت الاغتيالات برغم سقوط الاحتلال:**

كان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ـ كما قلنا ـ خطوة إلى الأمام..

على أقل تقدير ، خرجت به مصر من عالم المستعمرات وأصبحت دولة مستقلة.. حقًا إنها ظلت مكبَّلة بقيود التحفظات ، ولكن كان دائماً هناك أمل المفاوضات الخادع ، الذى ظل شَرَكاً يجتذب السياسيين..

وبصورة عامة ، نستطيع أن نقول إن معظم رجال السياسة المصرية ـ الذين كانوا يناضلون فى الميدان ـ اعتبروه كسباً أو ورقة ذات قيمة كبيرة ، فى لعبة القمار المملَّة التى كان السياسيون يلعبونها دون نجاح كبير..

وسعد زغلول نفسه قَبِلَ الدخول فى اللعبة على الأساس الجديد..

ولكن هذا لم يكن رأى الفدائيين..

فالفدائى الذى يواجه الموت فى كل لحظة ليحصل لبلاده على الاستقلال التام ، لا يقنع قط بنصف استقلال أو بحرية زائفة..

فحتى بعد صدور الدستور وقيام الانتخابات ، ظل الجيش الإنجليزى هو القوة الفعَّالة فى مصر ، وظل المندوب السامى يحكم البلاد ، وظل الموظفون الإنجليز فى أماكنهم فى كل ناحية من نواحى العمل.. إذن : بالنسبة للفدائى لم يكن تصريح ٢٨ فبراير شيئاً..

كان كسباً لرجال السياسة وخسارة لمصر ، فقد أصبح الكثيرون منهم وزراء ونوَّاباً ، ولكن مصر ظلت حيث هى..

أما الفدائيون فقد رأوه وقفة لا معنى لها فى منتصف الطريق وتضييعاً للقضية ، وإذا كان السياسيون قد رأوا أن يتوقفوا فلا معنى لأن يتوقفوا هم..

وقد حكى الأستاذ الدكتور السيد محمد باشا أن نفراً من الفدائيين أنكروا على سعد قبوله التصريح ودخوله الحكم على أساسه (وسنرى بعد قليل أن سعداً كان يعرف بعضهم على الأقل ، وإنْ ظلَّ شديد التحفظ حيالهم ) فلم يكد يعود من المنفى حتى التقى به جماعة منهم وجرى بينه وبينهم حديث طويل..

وقد استاء الفدائيون عندما قال سعد إن محمد توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن ، وكان الرأى العام فى البلاد مُجمعاً على أنه لا يستحق هذا الثناء ؛ وفى تصرفات سعد وأقواله أشياء كثيرة مثل هذه لا يعرف الإنسان كيف يفسرها..

وقال أحد الفدائيين لسعد: إن كلمتك هذه تنديد بالفدائيين..

والفدائى يشير بهذا إلى ما كان من محاولة الفدائيين اغتيال نسيم باعتباره خائناً فى نظرهم ، فردَّ عليه سعد قائلاً : كيف أندِّد بكم وأنا أعلم أن الإنجليز ما تزحزحوا إلا بأعمالكم ؟..

ولم يقتنع الفدائيون بهذا الكلام ، وكان رأيهم قد استقر على السير بنشاطهم إلى الأمام مهملين تماماً تصريح ٢٨ فبراير ، فما إن سمعوا بأن عبد الخالق ثروت يتفاوض مع الإنجليز فى استصدار هذا التصريح كشرط لقبوله تأليف وزارته حتى دبَّروا اغتياله..

وقرروا تنفيذ الاغتيال فى ٢٦ يناير ١٩٢٢م ، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها ، وقُبض على مدبِّريها وهم : محمد حسن فرغل ومحمد حسن سعد وعلى رحمى ومحمود حنفى سامى وعبد الحى كيرة ، وضبطت السلطات قنابل ومسدسات فى بيت كانوا يجتمعون فيه فى حى «جنينة ناميش» بالسيدة زينب فى القاهرة.

وقد حوكم المتهمون أمام محكمة عسكرية بريطانية فى مارس ١٩٢٢م ، وتدل الأحكام التى أصدرتها المحكمة على أن التهم التى وُجِّهت إليهم لم تثبت بصورة قاطعة، فقد حُكم على «محمود حنفى» بالسجن ثلاث سنوات مع الشغل ، وعلى «على رحمى ، ومحمد حسن سعد» بالسجن سنتين مع الشغل أيضاً . وهذه أخف أحكام أصدرتها هذه المحاكم على الفدائيين.

وفى الوقت نفسه استمرت أعمال اغتيال الإنجليز ...

ففى مارس ١٩٢٢م أطلق مجهولان الرصاص على « المستر ماكنتوش بك » مدير

قسم القاطرات بالسكك الحديدية فأصاباه إصابة بليغة ، ولم يقبض عليهما..

وفى مايو لقى البكباشى «كيف» مساعد حكمدار فرقة (ب) بمحافظة القاهرة مصرعه فى «شارع الفلكى» على يد فدائى لم يعثر عليه..

ويقول عبد الرحمن الرافعى إن الحوادث فى هذه الفترة القصيرة التى لم تزد على شهرين بلغت سبعاً ، لم تهتد الحكومة إلى الفدائيين الذين قاموا بها..

ويلاحظ أن هذه الحوادث كلها تمت بالرصاص ، مما يدل على أن السلاح أصبح متوافراً بين أيدى الفدائيين ، وتدل إصابتهم للأهداف على أنهم ازدادوا تدريباً وقدرة على استعمال السلاح..

وتوالت الحوادث ، فقد أصبح الاغتيال عملاً منظماً له خطة مقررة ترسمها جماعة أو جماعات..

**• هدف العمل الفدائى: إزعاج المستعمر حتى يحمل عصاه ويرحل:**

أكثر من خمسين جناية قتل ضد الإنجليز وضد المصريين المتعاونين معهم وقعت دون أن يستطيع البوليس المصرى أو البريطانى الوصول إلى معرفة الجناة فى أغلب الأحوال..

ووصل الأمر إلى حد أن أحد البريطانيين أُطلق عليه الرصاص فى مكان عام وأمام بعض الحوانيت ، وعندما سئل أصحابها قالوا إنهم لم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً..

واجتمع أعضاء الجالية البريطانية فى مصر بفندق شبرد ، واحتجُّوا على استمرار حملة الاغتيالات ، وطلبوا اتخاذ إجراءات قوية للقمع..

ولكن الاغتيالات استمرت..

لم تكن عمليات عشوائية أو ضربات غير مخططة أو مدروسة يقوم بها شبان متحمسون ولا شىء غير ذلك ، بل كانت ـ فى الحقيقة ـ حرباً معلنة على العدو يقوم بها جيش صغير منظم يتكون من جماعات من الشباب المؤمن الذى باع نفسه من الله فداء للوطن ، جيش حقيقى يعمل بناء على خطة موضوعة ، يرمى من ورائها إلى إلقاء الرعب فى قلب المحتل البريطانى ، وإشعاره أنه من المستحيل عليه أن يبقى فى مصر ، لأن مصر ترفض الاحتلال، وشبابها لا يهابون الموت فى سبيل الوصول إلى الاستقلال..

واحتج الإنجليز على «عبد الخالق ثروت» رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وبدأت سُمعته عندهم ـ كرجل إدارى حازم ـ تهتز ، وخصوصاً بعد أن كاد «المستر برت» المفتش بالسكة الحديدية يقع فريسة لرصاص الفدائيين فى ٣ يوليو١٩٢٢م..

وفى يوم ١٥ من الشهر نفسه جُرح «الكولونيل بيجوت» جرحاً بليغاً ، وكان يعمل فى الإدارة المالية التابعة للجيش البريطانى..

وهذه الأعمال هى التى أحرجت صدر عبد الخالق ثروت وجعلته يلجأ إلى إجراءات تتعارض مع ما عُرف من هدوئه واتزانه ، فقد أكثر من تعطيل الصحف التى تنشر أى تفاصيل عن الاعتداءات..

واعتقلت السلطة العسكرية البريطانية أعضاء الوفد فى القاهرة ، ومن بينهم رجال لا يقلُّون مركزاً فى البلاد عن ثروت نفسه ، وهم : حمد الباسل وويصا واصف ومرقس حنا وواصف بطرس غالى وعلوى الجزار وجورج خياط ومراد الشريعى..

وكانت هذه إهانة لثروت كرئيس وزارة لمصر فى عصر سُمِّى بعصر الاستقلال ، لأن الاستقلال الذى زعم أنه حصل عليه وأعلنه فى١٥مارس كان ينص على انتقال مسئولية الأمن الداخلى إلى السلطات المصرية ، فكيف تتولى السلطة العسكرية البريطانية القبض على أولئك الرجال دون مبالاة بالوزارة القائمة ووزير داخليتها عبد الخالق ثروت ؟.. ثم إن التهمة التى وجَّهتها إليهم السلطة العسكرية البريطانية كانت إذاعة منشور « يعرِّض للكراهة والاحتقار حكومة جلالة ملك مصر » ، كأن الإنجليز هم حراس جلالة ملك مصر وحكومته!..

وبعد قليل ـ فى صيف سنة ١٩٢٢م نفسها ـ قبضت السلطة العسكرية البريطانية على «عبد الرحمن فهمى» وآخرين ، حاسبة أنهم يديرون الجناح الفدائى من الوفد المصرى ، وسنتحدث عن ذلك فى الفقرة التالية.

وفى أكتوبر ١٩٢٢م تأسَّس حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن وكان الهدف الرئيسى من تأسيسه منافسة سعد زغلول ومحاولة زعزعة زعامته فى البلاد. وكان بادياً من أول الأمر أنهم لن يصلوا إلى ذلك إلا بالتعاون مع السراى والإنجليز ، ولهذا استقال عدلى من رياسة الحزب بعد قليل.

وقرر الفدائيون توجيه ضربة لذلك الحزب..

وفى مساء ١٦ نوفمبر١٩٢٢م اغتال الفدائيون إسماعيل زهدى بك وحسن عبد الرازق باشا ، وكانا عضوين فى مجلس إدارته..

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢م استقال عبد الخالق ثروت..

وفى اليوم التالى ـ ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢م ـ ألّف محمد توفيق نسيم وزارته الثانية ، وكانت مهمتها مسخ الدستور وتحويله إلى دستور ملكى احتلالى يخدم الملك وسلطة الحماية..

وبعد أداء هذه المهمة ، وبعد أن ألغت من الدستور كل ما يشير إلى وحدة مصر والسودان ، استقالت الوزارة فى٥ فبراير ١٩٢٣م !

واستمرت حوادث الاغتيال..

ولم تكن فى البلاد ـ إذ ذاك ـ وزارة ..

وفى ٧ فبراير ١٩٢٣م أصدر اللورد أللنبى أمراً عسكرياً بتعيين «الكولونيل كولس» حاكماً عسكرياً للقاهرة والجيزة..

ورداً على ذلك قام الفدائيون فى ١٢ فبراير ١٩٢٣م بإلقاء قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا .. ومع أن هذه القنبلة لم تحدث للإنجليز أضراراً جسيمة ، إلا أنها أثارت الخوف فى قلوبهم ، وأفهمتهم أن هذا البلد فيه رجال ، وأنهم لا يستطيعون العبث به ، وأن السلطان ورجاله وأعوانهم لن ينفعوهم فى شىء.

وفى حيرتها اعتقلت السلطة البريطانية زعماء الوفد والحزب الوطنى الموجودين فى مصر ، حاسبة أنهم مدبِّرو هذه الحوادث..

وكان الوفديون ورجال الحزب الوطنى أبعد الناس عن استعمال القوة والعنف ، وإنما كانوا ـ فى غالبيتهم ـ أهل أخذ وردّ وخُطب وبلاغة..

وأخيراً ـ فى ١٥ مارس ١٩٢٣م ـ تألفت وزارة يحيى إبراهيم بإيعاز من الإنجليز ، وكانت مهمته مصالحة الأمة الغاضبة ، وإعادة الدستور إلى ما كان عليه ، والعفو عن المعتقلين والمنفيين ، والتمهيد لإقامة حكم دستورى صحيح فى البلاد .. أعلنوا ذلك كله لمجرد تهدئة الخواطر..

وهكذا ـ وللمرة الثانية ـ يحقق الفدائيون ـ وحدهم ـ نصراً حاسماً على الإنجليز والسراى ويرغمونهم على احترام هذا الشعب..

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣م عاد سعد من المنفى ، واستُقبل استقبالاً أروع من استقباله يوم عاد من منفاه الأول فى أبريل ١٩٢١م.

وقامت الانتخابات ، وأُلِّف سعد وزارته ، وبدأت سلسلة طويلة من الاحتفالات.. وبدا وكأن الأمة قد حصلت على كل حقوقها..

ولكن الفدائيين كانوا يشعرون أن هذه كلها خدعة ، وأن سعداً لن يستطيع تحقيق آماله وآمال البلاد عن هذا الطريق ، خاصة أن معه فى الوزارة ـ وزارة الشعب ! ـ محمد توفيق نسيم ومحمد سعيد ، ومواقفهما من الشعب والحرية وحقوق البلاد معروفة..

وقرروا الاستمرار..

وكانت حادثة اغتيال السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م..

وكانت الكارثة..

واغتيال السردار فى ذاته فصل فريد فى بابه ، لدينا عنه من المعلومات ما يغيِّر تماماً وجهة النظر إليه..

***

## • تقرير راسل باشا حكمدار بوليس القاهرة:

ولا يصوِّر مقدار العناء الذى كانت تقاسيه السلطات البريطانية ومن كانوا يعاونونها من المصريين فى البحث عن الفدائيين ، مثل التقرير الذى كتبه توماس راسل باشا حكمدار بوليس العاصمة إلى اللورد أللنبى فى أول مارس ١٩٢٥م.

وقد أرسل أللنبى هذا التقرير إلى وزارة الخارجية البريطانية ، واطَّلع عليه الأستاذ محسن محمد فى دار المحفوظات البريطانية ، وترجمه إلى العربية ترجمة ضمَّنها سلسلة مقالات ممتعة عن موضوع الفدائيين نشرت فى مجلة آخر ساعة وهذا نص الترجمة كما ظهرت فى العدد رقم ٢٠٢٦ من تلك المجلة الصادر فى٢٢/ ٨/ ١٩٧٣م :

«رقم ٨ سجلات الأرشيف
قسم ٥
مصر والسودان
ج / ٧٤٦/ ٩٠/ ١٦
رقم ١٥٩ سرى
القاهرة فى أول مارس ١٩٢٥م
ووصل يوم ٩ مارس ١٩٢٥م
**من الفيلد مارشال الفيكونت أللنبى**
**إلى مستر أوستن تشمبرلين**
سيدى:

١ـ بالإشارة إلى برقيتى رقم ١١٢ فى الرابع عشر من فبراير ، والتى أرفقت بها تقريراً موجزاً عن التقدم فى التحقيق الخاص بمقتل السير لى ستاك..

٢ـ بعد أن أُلقى القبض فى بلدة الحمام على الطالبين المشار إليهما فى برقيتى رقم ٥٧ فى السادس من فبراير ، أرسلت إلى توماس راسل باشا حكمدار بوليس مدينة القاهرة وإنجرام بك مساعد الحكمدار ، وعدد آخر من الضباط البريطانيين والمصريين فى البوليس ومصلحة الحدود الذين كانوا على صلة بهذه المسألة ، وأعربت لكل واحد منهم ـ وحده ـ عن تقديرى الحار للطريقة التى وجَّهوا بها التحقيق ونفَّذوا عمليات القبض على القتلة.

٣ـ تأثرت بالتقرير الذى قدَّمه لى راسل باشا عن الوسائل التى أمكن بها التوصل إلى هذه النتيجة المرضية ، وطلبت منه إعداد تقرير مفصَّل ليقدمه ؛ ومرفق نسخة من هذا التقرير مع برقيتى.

٤ـ إنى أعتبر أن راسل باشا والضباط الذين يعملون معه يستحقون تقديراً عظيماً على النجاح الذى حققوه حتى الآن.

**مرفق: تقرير حكمدار بوليس مدينة القاهرة.**

**( سرى وخاص)**

١ـ إن شرحاً شاملاً للتاريخ المفصَّل للعمل الذى تم فى حل قضية مصرع السردار قد يقتضى سرداً مطوَّلاً لمحاولات النجاح والإخفاق فى عمل البوليس وأسباب ذلك كله فى أكثر من خمسين جريمة سياسية خلال السبعة عشر عاماً الماضية ، وهذا التفصيل يفوق طاقتى فى الوقت المتاح.

٢ـ مرة بعد أخرى ألقى البوليس القبض على الشخص المذنب فى اغتيالات سياسية سابقة ، وفى كثير من الأحوال أُطلق سراح هؤلاء الأشخاص بسبب عدم كفاية الأدلة ، أو بُرِّئت ساحتهم.

وكان القبض على هؤلاء الأشخاص يحدث دائماً ـ تقريباً ـ بناء على «معرفة البوليس» بأن هؤلاء ، أو أولئك ، هم القادرون على ارتكاب الجريمة.

ومع ذلك فلم يُصَب الأشخاص المقبوض عليهم ـ على الإطلاق ـ بانزعاج شديد ، لأنهم كانوا يعرفون حق المعرفة أنه لا يوجد أى شخص سيقدِّم دليلاً ضدهم ، كما كانوا يعرفون أنهم وهم فى السجون المصرية يستطيعون ـ بفضل تعاطف ضباط السجون معهم واستعداد السجَّانين لقبول الرشوة ـ الاتصال بحرية كاملة بمحاميهم وأصدقائهم فى الخارج.

وكثير من القتلة مدينون بحياتهم لهذه الاتصالات التى تتم من داخل السجن إلى خارجه.

٣ـ القتلة السياسيون يُنظر إليهم بطريقة ـ مكشوفة أو ضمنية ـ على أنهم أبطال قوميون ، ويتمتعون ـ بهذه الصفة ـ بتعاطف شامل ، وتساعدهم أحسن العقول والتبرعات الوفيرة.

٤ـ فى القضايا السابقة كان إذا حدث واستطاع البوليس أن يجد شخصاً يقوم بالتبليغ عن شىء ، فإن هذا الشخص يكون طالباً منحرفاً يرغب ـ من أجل المكافأة المالية ـ فى الإدلاء بخمسة فى المائة من المعلومات الصحيحة ، و٩٥ فى المائة من أقواله أكاذيب ، وكان هذا الشخص يصبح ـ فيما بعد ـ من المسئوليات الأبدية مدى الحياة بالنسبة لحكمدار البوليس البريطانى.. التعس !

٥ـ لـمَّا كنا نعلم أننا لن نقبض على أى أحد أبداً فى حالة تلبُّس بارتكاب الجريمة ،

بفضل معلومات صحيحة يمكن أن تؤدى إلى إدانة أو تجريم ، فإننا كنا ـ نحن رجال البوليس ـ نبحث دائماً عن طالب أو شخص ما يمكن اجتذابه أو استمالته إلى جانبنا بعد أن يكون قد أصبح متحرراً تماماً من أوهامه ، فيما يتعلق ببطولة أو جدوى هذه الجرائم.

٦ـ فى أثناء الصيف الماضى حاول إنجرام جاهداً أن يستميل إلى جانبنا سجيناً يُدعى محمد نجيب الهلباوى ، كان هو الشخص الذى ألقى قنبلة على المرحوم السلطان حسين عام ١٩١٥م . وكان قد صدر الحكم عليه بالإعدام ، ورغم ذلك فإنه لم ينطق ـ عندئذ ـ بكلمة واحدة تفشى سره ؛ وقد خفَّف السلطان حسين هذا الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

وبعد أن كان طالباً فى مدرسة الحقوق ، وجد نفسه يقطِّع الأحجار فى محاجر «سجن طرة» بقية عمره . وحتى بعد عشر سنوات من هذا الجحيم لم يتراجع قيد شعرة ، ولم يتفوَّه بكلمة.

وفى الخريف الماضى صدر العفو عن محمد نجيب الهلباوى ضمن مسجونين سياسيين ، وعاد إلى الحياة المدنية . وقد اتصل به سليم زكى واكتشف أن الهلباوى عرف الحقيقة ، وهى أنه ـ مثل الآخرين ـ كان أداة فى أيدى مجموعة من «الأوغاد» الذين ـ عن طريق التظاهر بأنهم وطنيون ـ حثُّوا هؤلاء « الغلمان» على ارتكاب جرائم القتل ومواجهة المخاطر على حين لم يخاطر « الأوغاد» أىَّ مخاطرة ، وحصلوا على المجد والوظيفة والمال عن طريق الوفد المعترف بالجميل. إن الهلباوى لم يضيِّع عشر سنوات من عمره فى المحاجر عبثاً ، وبدلاً من أن تجعله رجلاً خشناً ، فقد طهَّرته من الأوهام الرومانتيكية ، وخرج من السجن وهو يعرف من هو الرجل الذى دمَّر بلاده.. وهو يعتزم أن ينتقم..

ولا شك أن العشرة آلاف جنيه مصرى ـ وهى قيمة المكافأة ـ كانت تشكِّل حافزاً . ولكن ما كان يتوق إليه ـ أكثر من أى شىء آخر ـ هو العفو الملكى الذى سيمكِّنه من إسقاط اسمه من سجلِّ السوابق ، وبالتالى يستطيع الالتحاق بوظيفة.

٧ـ كان من الضرورى معاملة الهلباوى بصبر شديد ، ودفعت مبلغ ثلاثين جنيهاً مصرياً

كل شهر كى أساعده على أن يعيش حياة لائقة.

واعتاد سليم زكى أن يقابله كل٣ أو ٤ ليال.

وكانت مهمة الهلباوى هى إقامة صلة مع عصابة القتل ، والتعرُّف على نواياها بالنسبة للمستقبل ، وسرعان ما اكتسب ثقة أفرادها ، وتم الترحيب بعودته إلى حظيرة الجماعة..

تظاهر الهلباوى بأنه يحترق شوقاً إلى الانتقام لنفسه من الإنجليز ، بسبب سنوات الأشغال الشاقة العشر. وزوَّده بيكر بنصف دستة من قنابل ميلز اليدوية ، كى يساعده على أن يلعب دوره.

وكانت مواظبة سليم زكى على الاتصال بالهلباوى تنطوى على صعوبة ومجازفة فقد كان من المحتم أن تتم مقابلاتهما فى الحوارى المظلمة فى الجزيرة وهليوبوليس.

وشعر الهلباوى أنه استعاد وضعه داخل العصابة ، وأكد لنا أنه سيستطيع أن يعطينا إنذارًا بأية جريمة سياسية تعتزم العصابة ارتكابها ، قبل موعد تنفيذها بثمانٍ وأربعين ساعة..

وكان صديقه الشخصى فى العصابة محمود إسماعيل ، وقد أصدرت أوامرى ـ دون علم الهلباوى ـ بمراقبة محمود إسماعيل ، نهاراً وليلاً حيثما ذهب لمدة ستة أسابيع.

٨ ـ سوف أفشى سراً من أسرار المهنة..

إن ما يسمَّى بالمراقبة السرية التى يقوم بها المخبرون العاديُّون لا تصلح إلا لمدة يوم أو يومين ، ذلك أنه إذا كان لدى الشخص الذى نتعقبه شعور بالإثم ، فسيتعرَّف ـ فى الحال ـ على الذين يتعقبونه..

وجميع المخبرين الذين يعملون فى خدمتى ، معروفون لدى الطلبة الذين استطاعوا دائماً أن يضعوا عشرين منهم ، ليحلُّوا بعضهم محلَّ بعض ـ على مراحل ـ فى طريق أى رجل من رجالى..

ولذلك قمت منذ بعض الوقت بتنظيم جماعة من غلمان الشوارع المصريين لأغراض المراقبة ، وقام هؤلاء الغلمان بعمل مذهل. إنهم لا يعرفون القراءة أو

الكتابة ، ولا يعرفون لماذا يراقبون ، ولا أى شىء آخر سوى أنهم يجب أن يقوموا بالإبلاغ عن أى حركة من جانب الشخص المراقَب طوال نوبة عملهم ، وهى ثمان ساعات..

والطريقة التى يلتصق بها هؤلاء الصبية بطريدتهم تكاد تكون مدهشة ـ برغم العقبات ، مثل السيارات... إلخ ـ ولكنهم يقومون بالعمل المطلوب منهم ، ولم يكشف أحد أمرهم على الإطلاق..

وقد مكَّننى هؤلاء الصبية من معرفة عدد من الأشخاص كان محمود إسماعيل يتصل بهم ، وبعضهم تحوم حولهم الشبهات فى جرائم قتل وقعت منذ سنوات.

٩ـ حتى ١٩ نوفمبر ، عندما قُتل السردار ، لم نكن على يقين من أن الهلباوى يلتزم بخطتنا.

وفى الليلة السابقة لـ ١٩ نوفمبر ، استعد سليم زكى لمقابلة مع الهلباوى فى هليوبوليس فى الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر..

وعقب وقوع الجريمة أبلغت سليم زكى أن يحافظ على موعده مع الهلباوى ، وأن يستمع إلى تفسيره لحدوث الجريمة وعدم تحذيره لنا ـ مسبقاً ـ بوقوعها..

وقال الهلباوى فى تلك الليلة ، إنه لم يسمع عن الجريمة إلى أن نقل إليه سليم زكى خبرها.. وأنه ـ الهلباوى ـ كان مضطرباً للغاية بسبب إخفاقه فى تنفيذ وعده ، وكان مصمماً على أن يبرِّئ نفسه عن طريق الحصول على معلومات حول وقائع الحادث..

وأعقبت ذلك أسابيع من الانتظار..

والتقى الهلباوى مع سليم زكى كل بضع ليال . وألحَّ الهلباوى دائماً فى حديثه معنا على أنه لا يستطيع أن يتعجل الأمور ، ولا يستطيع أن يوجِّه أسئلة مباشرة ، لأن أعضاء جماعة القتل لا يوجِّه بعضهم أسئلة إلى بعض ، حتى لا يثير السائل حوله الشكوك فى الحال..

والرجل الذى يغرق لا يرفض أن يمدَّ يده إلى خيط رفيع يُلقى إليه من أحد

القوارب.. فهو يفضّل أن يعتمد على هذا الخيط على عدم وجود أى شىء يعتمد عليه..

وقررت أن أفعل الشىء نفسه فى سبيل الوصول إلى حل للمشكلة..

أبلغت سليم زكى - عندئذ - أن يجعل الهلباوى يشعر أننا بدأنا نعتقد أنه يخدعنا.. ثار الهلباوى على الفور ، واقترح علينا - متحدياً - أن نراه ونستمع إليه وهو يناقش الجريمة مع أحد أفراد العصابة..

واستأجرنا له غرفة فى فندق حقير .. وطلب الهلباوى من محمود إسماعيل وعبد الحميد عنايت الحضور ومقابلته هناك . ولذلك أعددنا للأمر عدته ، وأخذنا الغرفة المجاورة التى تتصل أبوابها بغرفة الهلباوى ، وكان بالباب ثقب مفتاح..

وبعد إجراء التجارب أعدنا ترتيب الأثاث فى غرفة الهلباوى ، بحيث يكون هو وضيفاه فى مواجهة ثقب الباب.

ويوم ٤ يناير كان الضابط حمدى يتولى المراقبة ، فشاهد وسمع الهلباوى وعبد الحميد عنايت يناقشان الجريمة ، وكذلك قصة وفاة شخص يدعى مصطفى حمدى نسف نفسه عندما كان يقوم بتجربة القنابل فى الصحراء عام ١٩١٩م.

والنتيجة المباشرة لهذه العملية الصغيرة هى اقتناعى بأن الهلباوى يواصل مهمته ، وأنه موضع ثقة العصابة..

وقمت أيضاً بمراقبة دقيقة لتحركاته عن طريق « الصبية » ، وقررت أن أثق وأسترشد به فى وضع خطة للإيقاع بالعصابة..

١٠- وحتى ذلك الوقت كان يتولى التحقيق فى القضية القائمقام بيكر بك ، ولكننا استدعينا إنجرام من الإجازة لأن هناك حاجة ماسَّة إلى خبرته ومعرفته بقضايا القتل القديمة.

ثم بدأت سلسلة من اللقاءات الليلية مع الهلباوى..

وكانت اللقاءات القليلة الأولى تتم فى شقة بالدور الأرضى ، كنت قد استأجرتها فى زقاق خلفى قرب فندق «السافوى» .

ومع ذلك فإن سوء الحظ جعل أحد رجال دوريات البوليس ـ وكان ذكياً على غير العادة ! ـ بدأ يرتاب فى أمرنا..

وبمجرد أن عاد إنجرام إلى منزله فى الجزيرة بدأنا نلتقى هناك بدلاً من الحجرة الأولى..

وقررنا فى النهاية أن الأمل الوحيد هو الحصول على اعتراف من شخص ما.

وقرَّرنا اختيار عبد الفتاح عنايت ، وأننا يجب أن نضع خطتنا بحيث نحمله على الهرب ، وأن نقبض عليه فى أثناء محاولة هروبه ، وعندئذ نرغمه على الاعتراف.

ووضع الهلباوى ـ فى ضوء معلوماته عما يجرى داخل العصابة ـ قاعدة هى: «عندما تلقى القبض على أشخاص ، فيجب أن يكون هؤلاء الأشخاص هم المذنبين الحقيقيين . أما إذا ألقيت القبض على أشخاص «مشكوك فيهم » أيضاً ، فإن المذنبين الحقيقيين سيعرفون أنك غير واثق من الأمر».

ولذلك تقرَّر القبض على محمود إسماعيل وشفيق منصور باعتبارهما المدبِّرين الحقيقيين ، وكذلك القبض على كل من يتصل بهم محمود إسماعيل وفقاً لبلاغات الصبية..

وكان الهلباوى قد تحقَّق من عبد الفتاح عنايت أن الأشخاص الذين اشتركوا فى الجريمة حقيقةً هم : عبد الفتاح نفسه ، وشقيقه عبد الحميد ، وشخص يدعى محمود راشد ، وأربعة من العمال..

١١ـ وقع الاختيار على عبد الفتاح عنايت ، باعتباره الشخص الذى يجب أن ندفعه للانهيار.

ووضعت ـ ونفذت ـ الخطة التالية :

تم القبض على محمود إسماعيل والأشخاص الذين يتصل بهم ، وكذلك شفيق منصور.

وكان محمود إسماعيل خارج القاهرة ، وسلَّم نفسه عندما سمع أنه مطلوب القبض عليه.

وطبقاً للخطة ، وبترتيب سابق مع إسماعيل صدقى باشا وزير الداخلية ، تم نقل محمود إسماعيل إلى القاهرة بالقطار فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٨ يناير ، وكان فى انتظاره حرس من «كونستابلات» البوليس البريطانيين ، ونُقل مباشرة إلى مكتب الوزير.

وقابلتهم هناك.. وأخذت السجين ـ محمود إسماعيل ـ إلى الوزير ، حيث قمنا بمحاولة غير ناجحة لتهويشه ، ثم أرسلناه إلى السجن.

وعندئذ سمحت لأحد الموظفين بأن يذيع سرًا ، وأن يتيح لصحيفة عربية أن تحصل على نبأ خلاصته أنى طلبت للسجين مقابلة خاصة مع الوزير ، وأنه لم يبقَ سوى ٣ أيام على انتهاء مهلة منح مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لكل من يدلى بمعلومات عن الجريمة ، وأنه يبدو من المحتمل أن هذا السجين لابد أن يكون قد طلب مقابلة الوزير لتقديم معلومات..

ويجب أن نتذكر فى هذا المجال أنه كان من الضرورى أن نخدع الصحيفة ، إذ لا يمكن أن يكون الصحفيون فى مصر موضع ثقة !..

١٢ـ وأصدرت الصحيفة ، كما أُوحى لها ، طبعة مبكرة فى الساعة الثانية عشرة ظهراً..

وحمل أحد « الغلمان » نسخة منها إلى الهلباوى ، الذى هرول بها إلى عبد الفتاح عنايت فى مدرسة الحقوق.

وإذ شاهد عبد الفتاح الصحيفة مطبوعة ومعروضة للبيع ، حتى اقتنع بأن محمود إسماعيل قد اعترف..

واستُدعى عبد الفتاح وشقيقه عبد الحميد ، وحمله الهلباوى على الاقتناع بأن اللعبة قد انتهت ، وأن الشىء الوحيد الذى يجب عمله هو الهرب عن طريق الإسكندرية إلى طرابلس.

وكان هذا الأسلوب فى الهرب قد نُوقشَ ، وأُقرَّ على أساس تنفيذه عند الضرورة ، وذلك قبل شهرين ، أى : فى الوقت الذى قُتل فيه السردار..

وتم القبض على شفيق منصور وتفتيشه فى الساعة الحادية عشرة صباحاً ليبدو أن عملية القبض عليه قد تمت نتيجة للاعتراف المزعوم الذى قدَّمه محمود إسماعيل.

١٣ـ وقرَّر الأخوان عنايت التوجُّه إلى شفيق منصور ، لطلب مشورته. وعندما وصلا على مقربة من مكتبه شاهدا ما سبق أن أعددناه لهما ، إذ كان هناك شرطى يقف عند الباب ، مما زاد من خوفهما أكثر فأكثر..

وتوجَّه الأخوان عنايت إلى منزلهما لاستطلاع الموقف حوله ، ولم يجدا أى شىء غير عادى .. وكان ذلك أيضاً جزءاً من الخطة ، فجمعا ملابسهما وذهبا إلى منزل محمود راشد ، وأخذا المسدسات الأربعة الأوتوماتيكية التى استُعملت فى قتل السردار ، ثم رقدا فى الفراش فترة قصيرة فى غرفة الهلباوى فى الفندق «المصيدة» وكان سليم زكى ينتظر فى الغرفة المجاورة..

واستطاع الهلباوى أن يحدِّثه ببضع كلمات فى الممر ، وأن يقول له إن كل شىء يسير وفقاً للخطة الموضوعة.

وكان موعد تحرُّك قطار الإسكندرية فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين بعد الظهر ، فوصل عبد الفتاح عنايت وشقيقه إلى المحطة فى الساعة السادسة ، واستقلاَّ القطار فى السادسة وخمس دقائق.

وانزعج « الغلام » الذى كان يتعقبهما ويراقبهما ، واتصل بإنجرام تليفونياً من إحدى الصيدليات وقال:

ـ احضرْ بسرعة ومعك «الكلابشات» .. إنهما يهربان..

وحاول إنجرام أن يهدِّئ من روعه ، ولكن « الصبىَّ » لم يقتنع وأسرع فى «تاكسى» إلينا فى المكتب ، حيث أعدنا طمأنته بأن كل شىء على ما يرام..

وما إن غادر القطار المحطة ، حتى قام البوليس بتفتيش منزل الشقيقين عنايت ، وتبعهما الضابط أحمد حمدى إلى الإسكندرية بالقطار التالى . ونزل ـ وفقاً للخطة ـ فى فندق مقابل للفندق الذى اختاره الهلباوى للهاربين.

١٤ـ من الضرورى الآن إقناع الأخوين عنايت بأن البوليس يتعقبهما ، ولذلك عمدنا بواسطة أحد عملائنا ، إلى نشر خبر فى المساء نفسه ـ فى صحيفة عربية تصدر فى الإسكندرية ـ يفيد أنه قد أُلقى القبض على الشقيقين عنايت فى القاهرة ، وأنه تم تفتيش منزلهما . وكان لابد من إعلان أنه أُلقى القبض عليهما فى القاهرة ، خشية

أن يبحث عنهما بوليس الإسكندرية ويقبض عليهما..

ووصلت إلى الأخوين عنايت نسخة من الصحيفة فى الصباح التالى .. وشلَّ الخوف حركتهما ، إلى حد أن الهلباوى عجز عن حملهما على مغادرة الفندق وركوب القطار إلى مريوط.

١٥ـ ظل الهلباوى على اتصال بالضابط حمدى خلال اليومين الأوَّلين ، ولكن نظراً إلى أن الأمور أصبحت صعبة ، فقد أرسلت إنجرام وسليم زكى إلى الإسكندرية بطريق الجو ، وبذلك نتفادى التعرف عليهما فى القطار..

وكانت الخطة هى أن يرتدى الهاربان ـ الأخوان عنايت ـ ملابس البدو ، وأن يستقلاً القطار ـ عن طريق خط سكة حديد مريوط ـ إلى بلدة الحمام ، حيث يستأجران سيارة تقلُّهما إلى السلوم ، ويهربان إلى طرابلس بمساعدة بعض مشايخ العرب السنوسيين.

وأراد الهلباوى أن نقبض عليهما فى محطة سكة حديد الإسكندرية ـ الرئيسية ـ أثناء تسلُّمه لتذاكر السفر. ولكننا لم نهتم بذلك ، لأننا كنا نتلهَّف بالتحديد على القبض عليهما ناحية الغرب ، أى: فى منطقة مصلحة الحدود حيث يكونان خارج دائرة سلطة النيابة ، وبذلك يمكن احتجازهما لبعض الوقت ، دون أن يكون هناك أمر من القاضى بإعادتهما إلى السجن..

واستعداداً للقبض عليهما فى نهاية خط سكة حديد مريوط عند الحمام ، غادر القاهرة ـ بالطريق الصحراوى ـ كل من الكابتن شتويند والبكباشى فيرمان من مصلحة الحدود يوم ٢٥ يناير ، مستقلِّين سيارة دورية خفيفة ، وانتظرا صدور أوامر إليهما من «برج العرب».

١٦ـ كان موعد الرحيل النهائى من الإسكندرية الساعة الثامنة من يوم الجمعة ٣٠ يناير ، ولكنهما أحجما عن السفر بدافع الخوف ، وفقدنا الاتصال بهما تماماً لأن الهلباوى لم يستطع تركهما . وتم إعداد عملية القطار المثيرة مرة أخرى ، فى اليوم التالى ـ السبت ـ وسط أمل متوهج فى أن يتمكن الهلباوى من إخراجهما.

وطلب إنجرام من بوليس الإسكندرية اثنين من البدو من عملاء البوليس ليركبا

القطار ، وليجلسا إلى جانب الهاربين اللذين يرتديان ـ الآن ـ الزى العربى.

وكان سليم زكى أيضًا فى القطار ، وكانت مهمة العميلين البدويين هى مراقبة الأخوين عنايت ، حتى لا يُلقيا بمسدَّساتهما خارج نافذة القطار لحظة القبض عليهما..

١٧ـ وقرر القائمقام شتويند ـ مساعد مدير سلاح الهجَّانة فى الحدود ، الذى كان ينظم عملية القبض عليهما ـ فى الدقيقة الأخيرة ، أنه من الخطورة بمكان القبض عليهما فى محطة الحمام عند نهاية الخط الحديدى ، لأن هذا هو يوم السوق ويوجد مئات من «العُربان» هناك ..

وعلى ذلك انتقل إلى القاطرة فى المحطة الأخيرة السابقة لمحطة الحمام ، وأوقف القطار فى منتصف المسافة بين المحطتين فى مواجهة الكمين المؤلَّف من فيلق من الهجَّانة السودانيين.

وكان شتويند يحمل معه صور الأخوين عنايت ، وسرعان ما انقضَّت جماعته عليهما وعلى الهلباوى وأوثقت أيديهم ، بسبب خطأ يؤسف له..

وفى الحقيقة فإن ذلك لم يكن بالأمر المهم ، لأن الهلباوى كان قد قرر بالفعل أن يعطى علامة ، إذا كانت هناك ضرورة لذلك..

وعثرنا على الأسلحة تحت المقعد الذى كان الأخوان عنايت يجلسان عليه ، وكانت هذه الأسلحة قد وضعت فى ذلك المكان قبل أن يستقلَّ البدويَّان ـ عميلا البوليس ـ القطار..

١٨ـ بعد ذلك تم نقل المسجونين إلى برج العرب ، حيث لحقت بهما صباح يوم الاثنين.

وتظاهر عبد الفتاح عنايت بالجنون مدة يومين ، ووجدنا معه كمية من سلفات المانيزيا ـ الملح الإنجليزى ـ كان يمضغها ليدفع اللعاب خارج فمه مثل المجاذيب..

وقررت أننا لن نتمكَّن من إرغامهما على الكلام هناك ، فسافرنا جميعاً يوم ٣ فبراير بالطريق الصحراوى ، فوصلنا إلى القاهرة بعد ٦ ساعات..

ويبدو أن السجينين ظنَّا أننا سنطلق عليهما النار فى هدوء وسط الصحراء ..

وفى القاهرة وضعنا كلاً منهما فى زنزانة مستقلة فى مستودع ذخيرة سلاح الحدود فى الخانكة ، وبذلك ظللنا محتفظين بهما بعيداً عن سلطة النيابة..

١٩ـ وفى اليوم التالى قابل وزير الداخلية إسماعيل صدقى الملك أحمد فؤاد ، وحصل منه على وعد بالعفو المطلق عن الهلباوى ، بشرط أن يقدِّم بياناً كاملاً عن كل ما يعرفه عن الجريمة..

وفى اليوم التالى ـ الخميس ـ عكفنا على محاولة التأثير على عبد الفتاح عنايت ولكنه أبى الاعتراف بأى شىء ، عدا أنه وشقيقه هربا تفادياً لوقوعهما ضحية اعتقال وقائى..

٢٠ـ ورأيت أنه قد حان الوقت لمواجهته بالهلباوى ، ولذلك استدعيت الهلباوى إلى خيمة المعسكر ليواجه عبد الفتاح.

وسئل عبد الفتاح عما إذا كان يعرف الهلباوى ، فأنكر أنه شاهده من قبل..

فطلبت من الهلباوى أن يتحدث إليه ، وعندئذ أخبره الهلباوى أنه قرر أن يخدم بلاده عن طريق مساعدة السلطات على إثبات الجريمة على مدبِّريها ، ووجَّه إليه النصح ليتصرف مثله..

سيطرت على «عبد الفتاح» حالة من الرعب يندر مشاهدة حالة مثلها أبداً ، وتوسَّل لإصدار عفو مطلق عنه ولكنى رفضت ؛ وبعد وقت قصير بدأ يعترف..

وبعد يومين أخذناه إلى النائب العام ، الذى أقنعه بأن يكرر اعترافه رسمياً.

وحتى هذه اللحظة ، لم يكن عبد الفتاح عنايت يعرف أن الاعتراف المزعوم الذى قدَّمه محمود إسماعيل لا وجود له..

وبمساعدة عبد الفتاح تعرَّفنا على العامل الذى كان يعمل فى مصلحة التليفونات ، وواحد من العمال الحرفيين فى السكك الحديدية.

وخلال اليومين القادمين ستحقق النيابة مع عبد الحميد عنايت ، الذى ينكر كل شىء حتى الآن بحدَّة .. وليس من المستبعد أنه لا يصدِّقنا عندما نقول له إن شقيقه قد اعترف..

٢١ـ عندى أمل كبير فى أن تتمكن النيابة من انتزاع اعتراف من عبد الحميد ، فمن المؤكد أنه سيكون من الصعب عليه أن يصمد أمام تقارير الضابط حمدى ، الذى شاهده وسمعه يتحدث مع الهلباوى فى الفندق يوم ٤ يناير..

وأمام النيابة كمية هائلة من العمل قبل أن تحال القضية إلى المحكمة ، إذ سيكون لدى كل واحد من المتهمين دليل مزيف على وجوده فى مكان آخر وقت اغتيال السردار .. وقد أعدَّ كل منهم هذا الدليل بعناية منذ وقوع الجريمة..

والحقيقة أنه توجد فى جعبتى بعض المفاجآت لهم ولمحاميهم ، ستظهر فى المحكمة..

إن بعضهم يكتب الآن رسائل سرية لتهريبها من داخل السجن ، عن طريق سجَّان اختير خصِّيصاً لذلك . وبعض هذه الرسائل يحتوى على تعليمات وأدلة مزيفة جديدة على وجود المتهم فى غير مكان الجريمة .. وقد تم تصوير هذه الرسائل بواسطتنا ، وأُرسلت إلى العناوين المطلوب إرسالها إليها .. وكم سيكونون غاضبين عندما يكتشفون أنهم إنما كانوا يربطون الحبل حول أعناقهم ..

٢٢ـ أشرت من قبل إلى أن عبد الحميد عنايت كان يتحدث مع الهلباوى حول قصة ضابط بوليس سابق اسمه مصطفى حمدى ، وجاء فى تلك القصة أن حمدى وآخرين كانوا يتدربون على إلقاء القنابل فى صحراء حلوان عام ١٩١٩م ، وأن حمدى نسف رأسه ودُفن فى المكان نفسه هناك.

وكان عندى أمل كبير فى العثور على هذه الجثة فى وقت من الأوقات ، لأن عبد الحميد كان قد وعد الهلباوى بأن يُطلعه على المكان .. ولكن بعد جولة بحث فى الصحراء لبعض الوقت ، قال عبد الحميد للهلباوى إنه نسى المكان..

وكانت خطتنا أن يلقى الهلباوى بعض الزهور على القبر . وكان دورى هو إرسال قَصَّاصى الأثر على الفور ، بعد أن يبلغنى الهلباوى أنه رأى القبر.

وإذا استسلم عبد الحميد فسوف نعثر على القبر ، أو قد أجده بدونه .. وهذه مسألة بالغة الأهمية ، لأننا سوف نثبت أن مبلغ ٢٠٠ جنيه مصرى قد أُرسل عن طريق «الوفد» إلى والدة مصطفى حمدى كتعويض عن وفاة بطل قومى..

وبالإضافة إلى العمل الذى سيضطلع به البوليس فى القضية ، فإن شهادة خبير الطب الشرعى ـ الدكتور سيدنى سميث ـ ستكون مثيرة لأقصى درجات الاهتمام.

٢٣ـ وفى مكان الجريمة عثر البوليس على أغلفة لخراطيش فارغة لمسدَّس أوتوماتيكى ٣٢ ، وظهر تحت الميكروسكوب أن هناك بعض الخدوش الواضحة على اثنين من هذه الخراطيش الفارغة ..

ومن المسدَّسات التى تم ضبطها فى الحمام مع الأخوين عنايت كان هناك مسدَّس أوتوماتيكى ٣٢ من طراز يسمَّى (شوريتى) أى : الأمان .. وعندما ينطلق الرصاص من هذا المسدَّس يترك نفس العلامات بالضبط على الخراطيش الفارغة.

وكانت إحدى الرصاصات التى أُخرجت من جثة السردار رصاصة أوتوماتيك ٣٢ وتحمل علامة أحد الأخاديد التى نشأت عن سلسلة من «الحزوز» فى قناة المسدَّس.

ومن بين المسدَّسات التى عثر عليها فى الحمام كان هناك مسدَّس أوتوماتيكى ٣٢ توجد بداخله على اليسار خمسة «حزوز» ، وأطلقت منه بعض رصاصات فوجد أنها تحمل العلامة المميزة نفسها . وكان منها «حَزٌّ» واحد فقط واضحاً كل الوضوح وهذا يرجع إلى أن هذه المسدَّسات قديمة ومستهلكة.

وكانت بعض الرصاصات التى نزعت من أجسام الضحايا مقطوعة بالعرض من طرفها الأعلى ، لجعل الرصاصة أكثر قدرة على الامتداد والانتشار ، وهو نفس القطع المستعرض الذى وجد فى الذخيرة المضبوطة . أما الأدوات التى تستخدم فى هذا العمل فقد عثر عليها فى منزل محمود راشد.

٢٤ـ وساعد البوليس مساعدة ضخمة فى هذه القضية موقف إسماعيل صدقى باشا وزير الداخلية الذى أعطى البوليس حرية حركة مطلقة ، وموقف طاهر نور باشا النائب العام .

وكانت السِّرية هى المسألة الجوهرية الأولى .

وحدث ضغط من كل اتجاه ـ بما فى ذلك القصر ـ لمعرفة حقيقة ما يجرى فى هذه المسألة ، ولكن عمل البوليس والنيابة ظل فى طيِّ الكتمان الشديد ؛ وأعتقد أن هذا الجو من السِّرية حدث لأول مرة فى التاريخ المصرى .

ولكى تتحقق هذه السِّرية أكَّدت إصرارى على ضرورة الاحتفاظ بالمتهمين بين أيدى ضباط البوليس الإنجليز التابعين لى ، والكونستبلات الإنجليز كسجَّانين . وهذا ما تم تنفيذه ، وكانت النتيجة رائعة .

وراهننى الهلباوى ـ الذى عرف السجون معرفه وثيقة خلال ١٠ سنوات ـ على أنه سيبعث برسالة مكتوبة ، ويتلقَّى الرد عليها من أى مسجون أود أن أحدِّد له اسمه فى أى سجن مصرى خلال ٤٨ ساعة ، ولـمَّا كنت على علم بما يجرى فى السجون فإنى لم أقبل الدخول معه فى الرهان ..

٢٥ـ عندى أمل كبير فى أن يؤكد التحقيق الصلة بين النقراشى وكيل وزارة الداخلية السابق وأحمد ماهر وزير المعارف السابق والشيخ مصطفى القاياتى ، وبين جرائم القتل السابقة ، وربما يتوغل فى الماضى أكثر وأكثر..

يبدو أن قتل السردار كان من تخطيط شفيق منصور دون علم الوفد ، وكان لشفيق منصور يد فى جميع الجرائم السياسية منذ سنة ١٩٠٨م..

وعلى ذلك كان لابد أن تكافئه الوزارة الزغلولية ، وقد وعدته بمنصب المدير العام للأمن العام . ولـمَّا لم ينفِّذ زغلول وعده ، بلع مرارته واضطلع وحده بعملية اغتيال السردار ..

إن شرحاً كاملاً للمصاعب التى تعترض طريق عمل البوليس السياسى فى هذا البلد سيستغرق وقتاً طويلاً ..

وإذا سار كل شىء سيراً حسناً ، فإن الفضل الرئيسى سيرجع إلى الهلباوى ، لشجاعته فى التقدم إلى الأمام على النحو الذى يفعله ..

إنه شخصية فريدة وينبغى تقديم الرعاية له لعدة سنوات ..

٢٦ـ الشخصية التى تلى الهلباوى هى أهم شخصية فى الخطة ، وصاحبها هو سليم زكى ..

وكان سليم زكى ملازماً أول صغيراً وبلا أهمية فى بوليس بورسعيد ، وقد أسره العرب حينما كان فى دورية فى أثناء زحف الأتراك على القناة.

وظن الأتراك سليم زكى شخصاً ليِّناً ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنهم أمسكوا بنمر فتىّ ..

وقد رفض سليم زكى أن ينقلب علينا ، ولهذا السبب أمضى ٣ سنوات فى سجون تركيا مع الضباط البريطانيين ، وأرغمه الأتراك على السير على الثلج إلى سيفاس (فى تركيا ) ضمن محاولاتهم لتحطيم معنوياته ، ولكن ذلك لم يحطم سليم زكى.

وبعد الهدنة عاد إلى مصر فى صيف عام ١٩١٩م وعُيِّن فى بوليس القاهرة ، وغالباً ما كانت عصابة القتل تلاحقه ، ولكنها أخفقت فى الوصول إليه لحسن حظه ..

وحاولت وزارات متعددة تحطيمه ، ولكنى ـ لحسن الحظ ـ كنت قادراً على إنقاذه ..

إنى لا أعرف مصرياً فى شجاعة سليم زكى وصلابته وإخلاصه للإنجليز . إنه يعرف شعبه ويدرك أن انجلترا هى الأمل الوحيد لهذا الشعب.

وقد عمل الضابط الشاب الملازم الأول أحمد حمدى بطريقة حسنة جداً ، وقدراته العقلية أكبر من قدرات سليم زكى ، وهو رائع مثله ، ولكنه ليس ذلك السلك المشحون بالتيار الكهربائى ، وهى الصفة التى تتوافر فى سليم زكى ..

٢٧ـ ثمة درس واضح ماثل فى ذهنى ، وهو أن الهلباوى لم يكن ليتقدم بمعلوماته على الإطلاق لأى شخص آخر غير المسئولين البريطانيين الذين أتشرف بأن أعتبر سليم زكى واحداً منهم !.

وبهذا ينتهى تقرير توماس راسل باشا ، الحكمدار الإنجليزى لبوليس القاهرة فى ذلك الوقت ..

## • هل كان للوفد جناح فدائى ؟

كان كثيرون من الإنجليز لا يشكُّون فى أن الوفد كان يوجِّه أعمال بعض الجماعات الفدائية ، وكذلك كان هناك نفر من المصريين يؤكدون أن للوفد جناحاً سرِّياً ينظم نشاط الفدائيين أو يقوم بجزء منه .

وهنا كانت تطفرأسماء أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ومحمد حلمى الجيَّار ومن إليهم من شبَّان الوفد المتطرفين فى نشاطهم وعملهم السياسى ..

وهناك أيضاً من يظنون أن عبد الرحمن فهمى كان عضواً فى ذلك الجناح ، وربما رئيسه..

ومن المستبعد الآن أن يكون عبد الرحمن فهمى من رجال العنف واللجوء إلى الاغتيال السياسى ، وإن كان اتجاهه ـ أول الأمر ـ متطرفاً .

ولم يكن عبد الرحمن فهمى ـ على أى حال ـ وفدياً مخلصاً إلا فترة قصيرة جداً ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك ود كبير بينه وبين سعد زغلول ..

ولكن أحمد ماهر والنقراشى كانا من شباب سعد المخلصين له دون شك ، وكانا كذلك يمثلان جناح الشباب المتطرف .

ولهذا كانت الأنظار تتجه إليهما كلما وقع حادث اعتداء ..

وكانت السلطات البريطانية تسارع إلى اتهامهما ونفرًا من شباب الوفد ورجاله المتطرفين فى ذلك الحين ، مثل الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور والدكتور نجيب إسكندر وحسن ياسين وغيرهم ، ولكنها كانت تفرج عنهم فى كل حالة لعدم ثبوت أى صلة لهم بالعمل الفدائى ..

والحقيقة أن الوفد كان حزب محامين يكثر بين أعضائه رجال القانون ، وكان سعد نفسه أبعد الناس عن العنف الدموى ، وإن كان يسرُّه ـ قبل وصوله إلى الوزارة على الأقل ـ أن تستمر أعمال الفدائيين حتى يتحرَّج موقف خصومه ممن كانوا يتولَّون وزارات السراى والاحتلال .. وقد سبق أن ذكرنا مناقشة بينه وبين فريق من الشباب المنتسبين إلى جماعات فدائية ، وهو حديث يتجلَّى فيه ذكاء سعد وحرصه ..

ومن المؤكد أن سعداً كان يعرف الكثير عن الفدائيين ، ولكنه كان يطوى هذه المعلومات فى نفسه . وكان إفراجه بعد تولِّيه الوزارة ـ عن المسجونين الذين اتُّهموا بأعمال فدائية ، دليلاً على معرفته ببعضهم وتقديره لأعمالهم .

وكان سعد ـ عندما وصل إلى الزعامة ـ شيخاً ، وظل مزاجه طوال حياته السياسية مزاج شيوخ ، والوفد ـ على أيام سعد ـ كان حزب شيوخ قبل كل شىء ، والشيوخ لا يميلون إلى العنف والاعتداء .

ولهذا لم يُدخل الشبَّان فى وزارته إلا عندما اشتد الضغط عليه من جانب السراى والإنجليز ، بعد إخفاق مفاوضاته مع ماكدونالد وعودته إلى مصر فى أكتوبر ١٩٢٤م.

هنا نجده يُدخل تعديلاً على وزارته ـ بعد استقالة محمد سعيد ومحمد توفيق نسيم ـ فيدخل فيها أحمد ماهر وزيراً للمعارف ، ومحمود فهمى النقراشى وزيراً للداخلية ، وكان قبل ذلك وكيلاً لمحافظة القاهرة .

ولو كان لاشتراك أحمد ماهر والنقراشى فى أى نوع من الأعمال الفدائية أدنى ظل من الحقيقة لاعترضت السراى ـ بإيعاز من الإنجليز ـ على دخولهما الوزارة ..

والخلاصة أننا لا نملك قرينة واحدة تؤيد وجود جناح فدائى للوفد . لقد كان الوفد حزباً سياسياً يعتمد على الأساليب السياسية السلمية ، كالمفاوضة وكتابة المذكرات وإلقاء الخطب والدفاع عن المتهمين السياسيين فى المحاكم ، وهو لم يعرف العنف فى أساليبه أبداً ، وكان شديد الميل إلى التمسك بالقانون .. ربما لأن سعداً نفسه كان رجل قانون..

وأعتقد أن ملكة سعد القانونية كانت تفوق ملكات أقطاب التشريع فى عصره ـ وهو عصر القانونيين والمشرِّعين . ومهما تقرأ فى كتابات عبد العزيز فهمى والدكتور عبد الحميد أبو هيف وعبد الخالق ثروت وتوفيق دوس ومن إليهم ، فإنك لا تجد فى كلامهم تلك اللمحات الرائعة التى توجد دائماً فى كل ما يصدر عن رجل فوق المستوى.

***

إلى هنا أقف بالكلام عن حركة الفداء المصرية فى أثناء سنة ١٩١٩م وما تلاها من سنوات .

وكلامى فى هذا لا يزيد على أن يكون مقدمة ومدخلاً ، أو فتحاً لباب البحث فى موضوع عظيم الأهمية كهذا ..

ولا يزال نفر من رجال الفداء أحياء بيننا ، فلماذا لا يكتب كل منهم ما عنده حتى تزيد حصيلتنا من المعلومات ؟

وهناك أيضاً كثيرون ممن حضروا تلك الحوادث وعرفوها بصورة أوفى وأدق مما وصل إلينا ، فلماذا لا يكتبون ؟

حسبى أننى كشفت النقاب عن جانب مهم من جوانب كفاح مصر للاستقلال كان مهمَلاً إلى الآن ..

حتى عبد الرحمن الرافعى لم يكتب عن الفدائيين المصريين فى كتابه إلا بعد اعتذار وكلامه فى هذه الناحية إحصاء وتحصيل يدلاَّن على أنه لم ينتبه قط إلى أهمية العمل الفدائى ..

وأشعر الآن ـ وبعد أن درست هذه الناحية ـ أننى أضفت بُعداً جديداً إلى تاريخ جهاد مصر للاستقلال : بُعد القتال المسلَّح ومواجهة العدو بسلاحه ، والتضحية بالنفس فى سبيل الوطن دون هيبة ولا وجل .

إلى جانب القانونيين والزعماء السياسيين ، كان هناك المقاتلون الذين قدَّموا أنفسهم رخيصة فداء للوطن ، وكانوا كثيرين جداً ، ومخلصين جداً.

قاتلوا فى بسالة ، وقاموا بأعمالهم دون معاونة من أحد ، فلم تكن هناك دول أو هيئات تؤيدهم بمال أو سلاح .

سلاحهم أخذوه من الإنجليز ، أو صنعوه باجتهاد الشباب المتحمس ، ومالهم دبَّروه بأنفسهم .. وقد استطاعوا ـ بفدائيتهم ـ أن يذلُّوا الجبَّار ، ويخيفوا الطاغية ، ويزلزلوا عرش السلطان ..

***